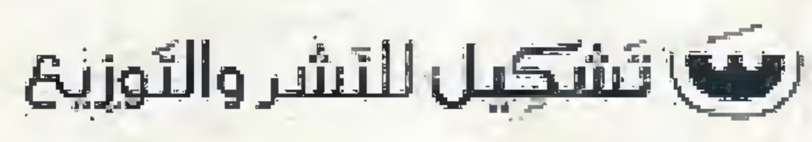
بَاريسُ

لا تَعرِف الحُبَ

روايَة

مُحمَد طَارِق





باريس لا تعرف الحب

تأليف

محمد طارق



تمهيد

إن وجودك هنا، يعني انضمامك للواقعيين جدا حتى في أحلامهم. شخصيات الرواية واقعية، وإن لم تصل بشكل كبير إلى الحقيقة. مستحيل أن تقرأ أيا من شخصياتها، دون أن تتذكر شخصا ما في حياتك، فالجميع هنا يعاني علي الأرض، ستجد ألد أعدائك بين شخصيات الرواية، وقد تجد أكثر الناس وفاءا لك. الوجع، الحزن، والأكتئاب، فالأجواء في هذا العصر ملوثة وعفنة.

في الحقيقة كنت أريد أن اكتب عدة أسماء حقيقة تعاني مما تعاني منه بعض شخصيات الرواية، ولكن لا جدوى، فالقبضة الحديدية لمجتمعنا الغبي ستنال منهم، ولن يعطي لهم الحق في التعبير عن آرائهم. سيصب غضبه عليهم، ولن يهتم بالسبب الرئيسي وراء وجود مثل هذه الشخصيات البائسة بيننا. فقط سيصبحون لعنة ومثلا يقتدي به في العهر، والفُجر والانحلال، مثلما صب المجتمع الإيطالي كل خطاياه علي الأديب الإيطالي كازانوفا. بالمناسبة أنا لا أرفض

العادات والتقاليد. فلكل مجتمع عادات، وتقاليد، وجب علينا احترامها، لكنني أرفض أفضليتها عن الشرع، أو الفطرة الإنسانية . .لم أكن أتمني أن اكتب لكم مثل هذه الحقائق التي يخشاها الجميع. أنا أيضا لم ابتكر شيئا من خيالي، فقط حاولت سرد أحداث المستنقع الذي نعيش بداخله بطريقة مختلفة. بعيدا عن الكذب تمنيت من الله أن يقبض علي روحي، بعد أن عاصرت بعض شخصيات هذه الرواية. .لم أكن أتمنى أن أعيش في هذا الزمن، وهذه الظروف الاجتماعية المعقدة. لطالما تمنيت أن أعيش الحياة الوردية، التي وعدتني بها أمي.

ربما كانت أمي في طفولتها تظن أن الحياة جميلة ومبهجة، أو ربما كانت الحياة في شبابها أقل قسوة مما هي علية الآن. هذه الرواية كتبت من بين أعماق أعماق الواقع. قد تعتبرها في لحظة ما رواية مأساوية، تقدم لك كل الأسباب؛ لتدفعك بقوة للانتحار. لكنها تجعلك قريبا من أبعد نقاط الواقع، وأكثرها تهميشا؛ لتصبح عقلانيا. .صدقني هذا مؤسف، فالذين عرفوا الواقع والحقيقة عاشوا في ألم وحزن لا ينتهي. .فهنيئا لمن لم ينضج بعد.

الفصل الأول

(مادمت تعيش علي الأرض..فتوقع كل شيء، فلا أحد
فوق الطبيعة البشرية)

سنفترق

أصعب النهايات تلك التي تحدث دون إنذار مسبق. كم من القصص الغرامية انتهت، لكن ثمة نهايات تبقى عالقة في الذاكرة، تفتك بنا في صمت. مازلت أتذكر الليلة المشئومة، ساعتها جاءتني مكالمة هاتفية صادمة؛ تخبرني بقرار الرحيل. سخرت منها وظننت أن قرارها عصبي لا يُؤخذ مأخذ الجد. أغلقت الهاتف، وجلست أتابع ما تبقى من مباراة كرة القدم بين ديربي العاصمة. أتليتكو مدريد وريال مدريد. سألني صديقي عن المكالمة، صحت مع الهجمة الأخيرة لفريقي، ولم أهتم بالإجابة علي سؤاله.. فالأمر مضحك حد خجلي من الاعتراف به. لقد اعتدت معها علي مثل هذه القرارات، فلم أهتم. انتهت المباراة بالتعادل السلبي؛ لتفسد بنتيجتها روعة البحر أمامي. طلبت من الجرسون فنجان قهوة. تابعنا النقاش حول أداء

ريال مدريد الباهت، صاح في وجهي. انطق أيها الغبي ماذا حدث في المكالمة. في الغالب لا يهتم أمير بتفاصيل علاقتي مع لورين، لكن يبدو أن ملامحي وشت عليّ بعد هذه المكالمة. أخبرته بالأمر ضاحكا.

ـ لقد قالت إننا سنفترق..

ضحك أمير بطريقة لم ترحني. كعادته يضحك بهيستريا حين يسمع أمرا مضحكا. لكن هذه المرّة اختلفت ضحكته، وكان لعينه رأي آخر..

تابعنا الحديث عن المباراة بجدية، ودون مبرر لكلماته قال..

ـ أحقا يمكن للورين أن ترحل عنك..

تمعنت النظر في عينيه. فأمير من أقصى جنوب مصر، عاش حياته بين الملاعب المصرية حتي سافر إلى باريس؛ للانضمام لأحد الأندية الفقيرة هناك، وما أن أكمل عامه الأول حتى عرفته أضواء الإعلام الباريسية، واقترب اسمه بشدة من الانضمام لنادي العاصمة باريس سان جيرمان. حتي أصيب بإصابة لعينة جعلته ينهي علاقته

بالمستديرة تماما. ويشاء القدر أن نلتقي بعد مشادة كلامية بينه وبين احد أفراد الأمن هنا. في مرسيليا تعرّفت علية من لهجته، فللمصريين لكنة معروفة دائما ما تجذبني إليها. كان شديد البنيان رغم قصر قامته، يتشاجر بطريقة عشوائية. أنهيت الأمر بشكل ودي مع الأمن. لحسن الحظ إنني معروف بشكل كبير. تصادقنا بعدها. كان عمره لا يتجاوز العشرين. كنت في حاجة لصديق، فرغم شهرتي الواسعة هنا إلا إنني اشعر دائماً بغربة شديدة تقصف بي بعيدا. بعيدا جدا عن الحياة. الذين غادروا أوطانهم هربا من الجحيم. يسكنهم جحيم غربتهم. توطدت علاقتنا كل يوم. الوحيد هنا الذي اخترته صديقا لي، رغم كثرة الأصدقاء حولي، إلا إنني اخترته ببساطة؛ لأنه يستحق أن يكون بالقرب مني. بالقرب من دكتور عمر النفادي.

انتهي اليوم. لم أهتم بالجواب علي سؤاله. غازلته صديقته المغربية علي الهاتف. فتواعدنا علي اللقاء غدا.

صعدت للمنزل لأجد أمامي حقيبة سوداء، سألت الحارس عنها فأخبرني أن لورين قد حضرت إلى هنا، وتركت أمام الباب هذه

الحقيبة ورحلت. . شكرته وحملتها وأغلقت الباب.

توقعت أن أجد منها باقة من الورد. . غيرت ملابسي وأحضرت زجاجة النبيذ المعتق، وفتحت الراديو علي إذاعة الأغاني. . صوت أم كلثوم تقول بصوتها الدافئ. . (بعيد عنك حياتي عذاب. . متبعدنيش بعيد عنك. . مليش غير الدموع أحباب معاها بعيش. . بعيد عنك). جلست علي الطاولة، وفتحت الحقيبة بهدوء كلص يمشي على أطراف أصابعه؛ محاولا السرقة. بمجرد أن فتحت الحقيبة حتى صعقت. يا لصعوبة الأمر!!

حاولت استيعاب الأمر. ثمة مواقف لا تنسى ابدا. . اتصلت بلورين عدة مرات. . لم تجب، عاودت الاتصال، لكن دون جدوى. . ليلتها كانت الأبشع علي الإطلاق. وقفت وحيدا وسط الشقة أسأل كيف علّي أن أفهم. . اتصلت بأمير وأخبرته بما تحمله الحقيبة، صمت للحظات ثم قال غدا سآتي إليك مبكرا يا عمر. أول ليلة في الغياب هي الأصعب علي الإطلاق. . اللعنة علي أولئك الذين يعطون لنا كل شيء، ومن ثم يرحلون فجأة؛ ليتركونا كورقة في قلب الإعصار، تتمايل وتترنح دون مأوي. كانت بشاعة رحيلها ذنبا لن يغتفر أبدا. . أشعلت لفافة تبغ،

ووقفت في الشرفة محاولا استيعاب الحقيقة...

لورين.. رحلت. لا لا.. إنها عاهدتني أن لا ترحل أبدا.. في أي شيء أخطأت، ماذا حدث.. كيف يمكن تصديق الأمر.. إنها تحبني.. إنها مجنونة بي.. كل هذا كذب.. هراء.. لا لا.. غدا سأتحدث معها، وأفهم حقيقة الأمر.. لقد فعلت لأجلها كل شيء. إنها لم تكن أبدا حبيبتي، إنها فاتنتي ومحبوبتي وملهمتي وابنتي. كان الجميع يظن إنها كذلك. فلقد عاملتها كطفلتي المدللة. بالتأكيد الأمر ليس بهذه البساطة والسهولة.. غدا سأعرف كل شيء.

في أول ليالي الفراق تتحول من إنسان ناضج لطفل يبحث عن أمه بين المقابر. حاولت تهدئة نفسي وفشلت، فضجيج عقلي كان أقوى من كل شيء.. أخذت منوما وذهبت لنوم مضطرب.

في صباح اليوم التالي..

أيقظني أمير من نومي.. كانت الغرفة فوضوية جدا.. معلبات فارغة وزجاجات الخمر مرصوصة علي الطاولة.. ناداني أمير

للجلوس معه في الصالة . قلت له لحظة سأتصل بلورين . قال وهل ردت علي محاولات إتصالك بالأمس . إذن انه ليس كابوسا كما كنت أظن، أو ربما أتمني . إذن علي الاعتراف أن من الآن لم تعد لورين موجودة . هذه الجميلة التي لطالما كتبت عنها لطالما حاولت إسعادها لم تعد هنا الآن. خرجت من الغرفة. كان أمير قد أعد الإفطار وفنجان القهوة. لم نبدأ بالحديث عن لورين. حدثني عن ليلته الساخنة مع فريدة، وعن إنجازاته في فتك أنوثتها، وهي عارية بين جسده، ثم اتجه الحوار حول مباراة الأمس، وردود فعل الجماهير علي نتيجة المباراة. خيم الصمت علينا ثم سألني عن الحقيبة . في سؤاله شعرت إنه يعرف كل شيء . لم أهتم وأحضرت الحقيبة له ليفتحها. وما أن وجد بداخلها رسائلي الممزقة، ومجموعة من صورنا معا مقطوعة بشكل مهين، وبعض الهدايا التذكارية حتى قال بنبرة ساخرة، أو محاولة منه للسخرية:

- يا لها من قوية . .

- لا يا أمير. يا لها من وقحة . .

- إنه الفراق يا عزيزي . .

- للفراق حرمة . فإن أردت الرحيل، فإياك أن تزرع خنجرا في قلب

من أحبك بصدق . . !

صمت للحظات كأنه أراد أن يخبرني بشيء ما، ثم قال . .

ـ سأتحدث معها في الأمر . .

ـ جيد . . أريدك أن تخبرها إنني لا أتمنى رحيلها أبدا . .

ـ حسنا . . سنلتقي في المساء . .

ـ بالتأكيد . .

ـ أين؟

ـ عند العم ماركو . .

كان متجر العام ماركو . . المكان المفضل لمفكري باريس . . هناك يجتمع العشاق والمفكرون والثوريون . . يقال أن الثورة الفرنسية بدأت من هنا . . ولطالما جلست مع لورين هناك . . الجميع يعرفوننا . لقد شهد متجر العم ماركو علي الكثير من ذكرياتنا معا . . هنا كانت تجلس باكية علي وفاة صديقتها القطة فيرونا . . هناك أحتضنتني بعدما أخبرتها بقبول أعمالها الفنية في مسابقة باريس للفن، وعلي هذه

الطاولة كنت اجلس لأعدّل علي بعض لوحاتها الفنية . . مؤلمة تلك الأماكن التي تذهب إليها بعد الغياب، فتجد كل ذكري بيننا علي جدرانها . . هنا كان أول لقاء بيننا . . لازلت أتذكر اليوم الأول . . كنت اجلس هناك علي هذه الطاولة . . جلست علي الطاولة بعدما تلقيت حفاوة الترحيب من الجرسون . كانت الشمس تستعد للرحيل ليبدأ الليل بهوائه البارد ينعش صدري بأنين لا ينتهي . . إنه بداية سبتمبر دائم التغير . . فثمة من يشبهون سبتمبر مشرقين جدا، وفي لحظة يفجعونك بأمطار تزرع في قلوبنا الشوك . . اتصلت بأمير فلم يجب . . أشعلت غليوني، وأخرجت الورقة والقلم وبدأت اكتب . .

لورين . . اليوم الأول في غيابك، كل شيء باهت هنا . باريس ليست جميلة أبدا كما أظن، استيقظت صباحا لأقف أمام المرآة أزين لحيتي كما تحبينها، لكني تذكرت أن وجودك لم يعد، كل شيء يذكرني بك، رائحة أنفاسك علي ملابسي، آثار يداك علي جسدي لا زالت محفورة . . إنني أحبك أحبك جدا أكثر مما تظنين . . أرجوك لا ترحلي عني . . اتركيني بجوارك لن اكرر فعلتي . . في أي شيء أخطأت، لا أعرف، لكن ربما حدث خطأ ما . أنا آسف يا حبيبتي .

آسف جدا، لكن إياك والرحيل. كيف علي أن ابتسم وأنتِ غائبة عني. كيف علي أن اغني، وتنهيدات غيابك تفضحني. . كيف أن أحيا دونك يا لورين. . أرجوك ابقي هنا. .

أعادني أمير من شرودي، وربت علي كتفي. .

ـ اخبرني بما حدث بالتفصيل. .

نظر أمير حول المكان كأنه يحاول استكشافه من جديد. . ثم قال. .

ـ عمر. . انس لورين. .

طالبت من الجرسون فنجان آخر من القهوة. . حاولت من جديد تمالك أعصابي قدر المستطاع. فالجميع هنا يعرفني جيدا، ويعرف لورين. إن لم أملك زمام الأمور. . فسأرتطم بالأرض من الصدمة، ويصل إليها الأمر. .

ـ ماذا حدث يا أمير. . ماذا قالت. . ؟

ـ إنها تريد الرحيل، وقد اتخذت القرار منذ زمن، لكنها انتظرت الوقت المناسب لتخبرك به. .

- أي وقت مناسب . . لورين تعرف جيدا أن بعد شهر سأغادر باريس متجها إلى روما لتكريمي هناك . .

- أخبرتها بكل هذا . . لكنها رفضت حتى الحديث معك . . انس، العلاقة انتهت .

صفعة من جديد تضربني في مقتل . . لطالما كنت أعلم أن لحظات رحيلها تقترب، لكنها أفجعتني بالطريقة . . يقول أمير عليا أن أنسى . . كيف لي أن أنسى من شاركتني لحظات بؤسي وحزني وسعادتي . ثمة أشخاص يدعونا للنسيان، لكنهم لا يعرفون بشاعة ما نمر به . .

سمعت صوت جدتي يضرب في أذني عن قصة الصبي الأحمق . .

كان يجلس برفقة الدمية . . يلعب معها بطفولية ساذجة . . الشمس مرسومة بحياء على ملامحه الجميلة . . عيناه يملئها الشغف والسعادة، يداعب الدمية ببراءة . . وحدهم الرجال يملكون غريزة الحنان والعطاء رغم مخافتهم أن يبدي ضعفهم، لكن انظر أيها

الأحمق الصغير ألا تعي أين تجلس أنت. انهض أنت من فوق قضبان القطار. أنهض فالقطار يقترب. سيقتلك، ستصبح أشلاءا صغيرة. نظر إليهم باندهاش.. لم يهتم بحديثهم وتحذيراتهم. هو من الأساس لا يفهم ماذا يقصدون بكل هذه النداءات والتحذيرات.. يقترب القطار ويغدو الطفل أكثر فأكثر في دلال لعبته الصغيرة.. اقترب القطار.. اقترب أكثر فأكثر.. بدأ الصراخ يعلو. أنهض، ستموت.. أنهض، سيفتك بك القطار.. ارتعش من ضخامة القطار لكن لا يفهم ماذا يقصد الناس بكل هذا العويل والصراخ.. ماذا يجب أن يفعل.. ادهسه القطار.. مات الصبي الأحمق.. أصبحت أشلائه متناثرة علي الطريق.. كذلك الدمية لم يعد لها أثر. ويبقي السؤال.. لماذا لم يجد اليد التي تنهض به. لماذا اختزل الناس تحذيراتهم في الحديث والصراخ. لماذا بخل الناس عليه بالمجازفة. لِمَ لم يجد أحدا يقف معه، ويمد له يده؛ لينقذه من الموت.. أو ربما عناقا طويلا؛ ليواجها الموت أو الحياة معا.. كيف اللوم علي أصم أجهل بالصراخ.. كيف العتاب علي كفيف لا يعرف الضوء؟!

العاشرة صباحا..

استيقظت من نومي في مكان لا اعرفه. الجدران مدهونة بطلاء يشبه طلاء المستشفيات. السكون يسيطر علي كل شيء، والشمس تداعب الغرفة في حياء. حالة خمول تسكنني، ولا أستطيع إسناد ظهري لاستكشاف المكان. الذين قالو أن الحزن يولع الكسل. صدقوا، أو ربما اللامبالاة. فأي مصير سيصيبني لا يهمني، فلقد رحلت. رحلت وما كنت اخشي أن يعاقبني القدر بغيابها. سمعت صوتا يقترب من الغرفة. لم أستطع أن أعدّل جلستي، فأعلنت استسلامي أمام القادم. كان شابا في العشرينيات من العمر ذا بنيان قوي، ولحية كثيفة. يرتدي معطفا أبيض، وعلي وجهه أبتسامة لطيفة..

ـ صباح الخير أستاذ عمر..

قالها بالفرنسية. ظننت انه من باريس رغم ملامحه الشرقية. رددت علية التحية بالإنجليزية. ابتسم ورد بالإنجليزية..

ـ أي لغة تريدني أن أحدثك بها..

ـ الفرنسية. الإنجليزية. العربية لا يهم أي اللغات تجيدها..

قال بلكنة مصرية . .

- تتحدث العربية . رائع علي أي حال أنا من اشد المعجبين بك .
قرأت مقالاتك الأخيرة علي مواقع التواصل الاجتماعي، لكن
ظننت أن لغتك المفضلة هي العربية . صدقني أنا منتظر علي أحر
من الجمر حفل تكريمك في روما، وإصدار كتابك الأول . . أنا
دكتور مصطفي الزناتي . .

دائما يلزمني الصمت حين يشيد أحد بكتاباتي . لم يكن الوقت
مناسب أبدا للرسميات . سألته عن سبب وجودي هنا، وكم يوما
لبثت في هذه الغرفة . قال: إنني هنا منذ عشرة أيام . جاء بي إلى هنا
رجل يدعي أمير . قال إنه صديقك . اجرينا الفحوصات اللازمة
وتابعنا حالتك بعناية . كنت في نوبة إغماء متقطعة . وإنني في حاجة
لراحة أكثر . قد تمتد لعشرة أيام أخري . . لم افهم أي شيء من
حديث مصطفي . لم يكن عقلي في كامل وعيه . حاولت إنهاء حديثه،
فطلبت منه الذهاب للحمام .

كانت طرق المستشفي مزينة بباقات من الزهور الجميلة، يمر من خلالها هواء منعش. في أي مصحة أنا؟ لا اعرف. فلا يوجد حولي إي إشارة تدلني علي طبيعة عمل المستشفي. جسدي سليم تماما. لا يوجد أي اثر لجرح أو بتر.. أين أنا؟ لا أعرف.

دخلت الحمام، ووقفت أمام المرآة. أفزعني مظهري.. وجهي شاحب كرجلٍ في الستين من العمر. لحيتي كثيفة بطريقة عشوائية، وشعيرات بيضاء تظهر علي رأسي، وهالات سوداء تسجن عيناي، وشفاهي خشنة كأنها لم تبلل بالماء منذ زمن.

سلاما لأولئك الذين غيَّرهم الحزن.. أصاب ملامحهم بالشيخوخة وانثي ظهورهم من ثقل الهموم. إنها لحظة لعينة أن تقف أمام المرآة، وتسأل من هذا الذي يشبهني. كيف حدث ذلك.. متي ومن المسئول عن هذا الخراب الذي أطاح بي.. لا أتذكر شيئا سوى رحيل لورين الغبي. بكيت، بكيت حسرة أو خيبة. لا أعرف، فانا من هؤلاء الذين يبكون دون سبب؛ لبكائهم فقط يقتلهم الحزن.

خرجت من الحمام. . وجدت باقة رائعة من الزهور موضوعة علي سريري . . الشمس اكتملت الحضور في الغرفة ، وفنجان القهوة معد علي الطاولة الصغيرة مع ورقة صغيرة مكتوبة بخط اليد (كن بخير) . لفتة رائعة ظننت أنها من طقوس المستشفي ؛ لأنها لا تحمل اسم أي شخص. وقفت في الشرفة محاولا استكشاف مكاني . . أرض واسعة أمامي. بساتين وردية ، وأشجار الياقوت مرصوصة. مسبح كبير في منتصف الأرض ، وفي أقصى اليسار مطعم يجلس علية بعض المرضى. ظللت ابحث في الداخل عن علبة سجائر . كانت الغرفة خالية من أي مخبأ أو درج صغير. فقط ملابسي معلقة علي الباب ، وسرير ، ومكتب صغير بجواره. شعرت برغبة في المشي . . فتحت الباب فإذا بمصطفي يقترب نحوي .

ـ هل أعجبك مذاق القهوة . . ؟

ـ أحب القهوة مع السجائر . .

للقهوة والنيكوتين علاقة كلاسيكية لا يفهمها الكثيرون. فالقهوة ترفض أي شريك لها كفتاة مدللة تغار علي حبيبها من الأخريات ، والنيكوتين يهوي مشاركتك في أدق تفاصيلك كصديق وفي لا يمل من تكرار أحاديثك. ليتني لم أتخذ غيرهم رفاقا . . ليتني طلبت من

مصطفي شرح كل شيء لي منذ اليوم الأول الذي جئت فيه إلى هنا حتي هذه اللحظة. وافق، لكنه دعاني للجلوس في المكان الذي رأيته من الشرفة. وافقت فصراحةً كنت في أمسّ الحاجة للخروج من الغرفة. بدأنا في السير. كان الممر طويلا. أنا استكشف المكان وأتلقى التحية من وجوه لا أعرفها، لكنها تبدو لي تعرفني جيدا. علي أي حال.. الابتسامة في وجه البؤساء لمثلي هدية رمزية، كفيلة بتغيير مزاجي تماما.. لم أنطق بأي كلمة. كان مصطفي يتحدث عن روعة كتاباتي، ويشيد بعقليتي وأفكاري، كما إنه يشعر بالفخر لمجاورتي، والعناية بي. كانت كلماته لطيفة، لكنها لم تستطع أن تهدئ ضجيج عقلي، وثورة الأسئلة الجامحة في هواجسي. جلسنا سويا علي الطاولة.. المكان هادئ جدا، ومقطوعات بيتهوفن تعزف بشكل دوري.. أعطاني مصطفي علبة من السجائر، وطلب من الجرسون فنجانين من القهوة العربية.. سألته عن أمير قال: إن أمير يأتي كل يوم ليطمئن عليك.. كان يراودني السؤال عن لورين، لكنه أخمد ثورة أسئلتي حين قال أن هناك فتاة أخري تأتي كل يوم في الصباح تضع لك باقة من الورود وترحل..

ـ لورين..؟

ـ لا . أنا اعرف الآنسة لورين . . لقد رأيتها عدّة مرات في محاضراتك الأخيرة . .

ـ من . . ؟

ـ صدقني لا اعرف . . أنها رفضت أن تخبرني اسمها . . لكنها قالت لي إنها مجرد معجبة بكتاباتك ، ولا تريد ذكر أسمها . . فقط كل ما تريده أن تتماثل بسرعة مما أصابك . .

أدهشتني طريقتها لكن لم تشغل بالي أكثر من دقيقة ثم قلت له . .

ـ أين أنا . . ومن أتى بي ، ولماذا . . ؟

ـ عمر . . أنت في الرعاية النفسية في باريس . . أتي بك صديقك أمير في التاسعة مساءا . . كنت في حالة إغماء تماما . . أجرينا الفحوصات اللازمة لك . . كنت ترتجف وتزداد رعشة يداك أكثر فأكثر . .

ـ وماذا قالت الفحوصات . . ؟

أبتسم مصطفى ونظر حول المكان كأنه أراد أن يجمع الكلمات من الهواء . . كررت سؤالي ، وأشعلت سيجارة أخرى . . قال بهدوء :

ـ أنت مصاب بمرض السكر العرضي وانهيار عصبي كامل تسبب في

فقدانك للوعي كل هذه المدة . .

صعقت. صعقت تماما كيعقوب بعد أن سمع نبأ مقتل يوسف الكاذب. . لا اعرف أي صفعة ضربتني، فقدت النطق، وحاولت استيعاب الموقف، سألته من جديد لورين. فلم يختلف رده. . نزلت دمعة خبيثة من عيناي رغما عني. .في وقت ما سيخذلك الجميع حتى نفسك حين تبكي رغما عنك . . !

أتى أمير ليجلس معنا. تعانقنا بحرارة كنت اشتاق إليه. دائما ما يسخر أمير في معظم المواقف التي لا تستدعي للضحك أبدا. داعبني بنكتة سخيفة لكن طريقته في إلقائها تضحكني. أبتسم مصطفى، واستأذن بهدوء ليتركنا بمفردنا . .

- أمير ماذا حدث. آخر ما أتذكره وجودنا عند العم ماركو، ومن ثم استيقظت لأجد نفسي هنا . .

لم ينتبه أمير لحديثي . .كان منشغلا بجذب فتاة المطعم . .عنفته فقال . .

- لم يحدث شيء يذكر . .لقد أخبرتك بما قالته لورين . .ظللت

صامت ما يقارب نصف ساعة ثم أرتطمت بالأرض. حاول العاملون بالمتجر مساعدتي في النهوض بك . . لم تفلح محاولاتهم. طلبنا سيارة الإسعاف أتت في الحال . . نقلتك لمستشفى فريدا وسحبوا منك عينات دم للتحليل . . كانت النتيجة إيجابية، لكن طلب الدكتور مني نقلك لمستشفى باريس للأمراض النفسية . مع إلزام المرضي بالرعاية التامة . فالانهيار العصبي كان اقوي من مرض السكر . . فتكفلت المستشفي بكل شيء . .

- كل هذا لا يستحق الذكر يا غبي .

أبتسم أمير وواصل مداعبته النظرية للفتاة . . صحت في وجه

- يا أمير ماذا عن لورين . . سألته وقلبي يعرف جيدا إجابة سؤالي . كنت كالأحمق قبل لحظات من إعدامه يسألهم ماذا ستفعلون بي . كنت اعلم حقيقة الأمر، لكني حاولت التماس العذر لها . . لم يختلف الرد عما توقعت أنها لا تهتم بأمرك . . سألته عن فتاة الورد . . فأعاد اهتمامه إلي، وسألني أي فتاة تقصد . قلت له إن خلال العشرة أيام الماضية كانت تأتي كل يوم فتاة تقدم باقة من الزهور وترحل . اندهش أمير من الموقف، ونفي صلته بها أو معرفته بها . حدثني أمير بجدية عن حفل تكريمي والإعلان عن

كتابي الأول في روما بعد عشرين يوما من الآن. رفضت الحديث في هذا الشأن. وافقني الرفض، واستعد للرحيل. سألته متى يمكنني الخروج من هنا فقال: حسب تقارير دكتور مصطفي عن حالتك يا عمر. . عانقني ورحل بصحبة فتاة المطعم. يا له من وغد يستطيع قنص النساء كأسد يفترس غزال بسهولة . . !

ذهب أمير. . شعرت بشيء من الملل، فاتجهت لغرفتي. . كنت أسير ببطء أتابع الوجوه من حولي. . المثير هنا أن المرضى مجموعة من الشباب والبنات في مقتبل العمر. . كنت علي يقين أن أبناء التسعينات يائسون حد المرض. . دخلت الغرفة فوجدت مادلين في انتظاري.

مادلين هي الصديقة المقرب للورين. . فتاة سمراء اللون ذات ملامح شرقية. تلاقينا منذ زمن قبل لقاءي بلورين، لكن بحكم اهتمامي وانشغالي الدائم في العمل. . ابتعدت عن مادلين فترة كبيرة، فاستغلت هذا واقتربت منها ليجمع بينهم علاقة قوية. . كانت ترتدي فستان اسود قصير. . رحبت بها ثم أخبرتني أنها فعلت كل ما في وسعها كي تثنيها عن قرارها. قاطعت الحديث بكبرياء رجل شرقي يعرف تماما كيف يتحول التحايل للذل. . سألتها من طلب منك ذلك.

فقالت أن هذا ما يجب أن يفعله الجميع. إنها ابنتك

ما أن قالت أبنتك حتى عدت إلى عالمي الخاص. . لورين أبنتي الأولى. إن أصعب ما يمكن حدوثه هو رحيلك. . أسألك يا الله عودتها. . أسألك أن تحنن قلبها علي وتعود. . لقد سخرت حياتي لها. إنها حياتي، لا قيمة للحياة بدونها. سأموت وجعا يا إلهي. . سينهش الحزن ملامحي، وتفتت الذكريات ذاكرتي. . لقد نهش المرض جسدي. . أنقذني يا الله. . أنقذني. . !

أخبرتها بكبرياء إنني تعافيت منها. . أظن أن الموت يعرف أولئك الذين يخفون حزنهم بكبرياء. . ابتسمت مادلين وعانقتني. همست قائلة: إن كل شيء يمر حتي حزنك. . كنت اكذب حين وافقتها. أي شيء سيمر. هذا الحطام العظيم. . هذا الوجه الشاحب. . ربما ستمر هذه الغيمة، لكنها لن تمر بسلام أبدا. ستترك بداخلنا كل أثر للحزن وللوجع. من قال أن المدينة التي تقصف بها الحرب تعود مشرقة كما كانت. . حتي وان عادت آمنة، يبقي هناك جزء خاص محطم تماما. . !

رحلت مادلين. . كانت الشمس تودع السماء. . أسندت ظهري علي السرير وتابعت غروب الشمس في حضرة الورقة.

لورين! كل طرق الوصول إليك يملئها الضباب. أنت تعلمين إنني صادق في عشقي، لازلت الفرصة سانحة لعودتك. أنا عاجز عن التنفس. عن الأمل والحياة. . أنا رخو من دونك. . غيابك افسد كل شيء حولي. كيف رحلتي لا أعرف. تركتيني هنا أعاني بمفردي. . دون سبب واضح. تملكين قلبا رائعا أعرفه. لطالما أحببته وكتبت لك عنه. أين أنت الآن. تركتيني وحدي أتألم وتعصف بي الظنون. ويا لكثرة ظنوني. . !

أعادني من شرودي. . دكتور مصطفي الزناتي. . سألته. .

- متي يمكنني الخروج من هنا. .

- من الغد إن أردت. .

أشعلت سيجارتي ولم أبادله أي اهتمام علي جوابه. . كان صمتي بمثابة الموافقة علي حديثه.

فجأة اخرج مصطفي مظروفين من قميصه.

وقال هذه الرسائل لك . .

ـ من الراسل . . ؟

ـ الأولى من روما . والثانية مجهول . .

نظر إليهما باهتمام دون أن يفرغ محتواها . لكن الفضول كاد يقصف به بعيدا في عيناه . .

ـ أليس من حقك أن تفتح هذه الرسائل . . ؟

ـ لا

ـ بالتأكيد كي لا تشعر المريض بالحرج . الأولوية الأولى في العلاج النفسي أن لا تشعر مريضك بمرضه . .

ـ إذن أنت معالج . . ؟

ـ جميعنا معالجون نفسيون مع اختلاف الطبقات . أنت تعمل بالمهنة وأنا اكتب عنها وأخر يقرأ وأخر يمارسها بشكل عفوي . لا فرق صدقني . كلنا مرضى نفسيين . . !

صمت مصطفى كرجل عجوز يعيد ذاكرته القديمة . جلس بجواري علي السرير، واسند ظهره عليه . تنهد، أشعل سيجارته وتأمل في السقف . كان علينا أن نتبادل الأدوار . أكثر الناس استماعا

لغيرهم يحملون هما لا يحتمل . . !

بدء مصطفى في الحكي كأنه يحدث نفسه . .

عشت طفولة مشتتة بين بندقية الكيان الصهيوني في شرق غزة وتمنت الأمن المصري في غربها . . في العاشرة من العمر أصابت قاذفة هاون منزلنا. مات الجميع بلا استثناء. ثلاث من أخوتي البنات وخمسة من الفتيان . . كنت خارج المنزل يومها. جئت مسرعا بعد سماع النبأ . . لم استطع التمييز بين الأرض وأشلاء جثث عائلتي . . كانت ليلة مشئومة علي أي حال . . شيء واحد واضح أمامي كل هذا الحطام ملك لي وحدي. من المسئول عنه لا اعرف . . ذهبت لدار رعاية الأيتام في حيفا . . ترددت أنباء عن الفاعل . . البعض يقول أن القذيفة سقطت بالخطأ عن طريق القيادة المصرية. والأخر يردد أن القذيفة سقطت من الاحتلال الغاشم. والأخر يقسم أنها حركة المعارضة الفلسطينية. أرادت أن تضع السلطات الموالية للنظام في موقف حرج .

في الوطن العربي لا يمكن تحديد هوية القاتل، فأصابع الاتهام تلاحق الجميع . . علي أي حال إن كان هناك حكم يستحق أن يُصدر

فلابد أن يعدم كل من تسبب في جهل وفقر هذه الأمة. بعدها تنقلت لمصر بعد أن تبنتني أسرة هناك. درست الطب في جامعة القاهرة، ومن ثم رحلت معهم إلى باريس بعد الثورة المصرية قبل عشر سنوات. أكملت دراستي هناك. تعرفت على سُهيلة، كانت جميلة جدا ذات شعر أشقر، وملامح باريسية واضحة. تحاول دائما مساعدتي بكل الطرق الممكنة. استمرت علاقتنا لعامين قبل أن اعرض عليها أمر الزواج. المفجع أنها رفضت تماما واعترفت لي أنها علي علاقة جنسية بصديقتها الإسرائيلية. كيف لرجل أن يغار علي محبوبته من فتاة أخري. ليتها أخبرتني أنها علي علاقة برجل آخر، سأغار وينتهي الأمر. لكن علي علاقة بفتاة إسرائيلية أي سهم هذا الذي انتهك مشاعري كرجل، وفتك بوطنيتي كعربي فلسطيني. كانت صفعة ثنائية الأبعاد. ابتعدت عنها للتو. كنت أتألم فلطالما عشت وحيدا أعاني من غربة داخلية تقتلني، وحنين يمزقني لوطني الأول فلسطين. بعدها كرّست حياتي للعمل والعبادة لمدة عامين. حاولت سهيلة خلالهم الاتصال بي أكثر من مرة، لكن لم استجب لاتصالها. جاءتني عدّة مرات، لكني رفضت مقابلتها. وفي أحد ليالي ديسمبر سمعت أن هناك حدث إجرامي حدث لفتاة باريسية. شيء ما شعرته

من مسمعي. . سهيلة . . اتجهت بسيارتي لمنزلها وتأكدت ظنوني أنها سهيلة . . مقتولة بطريقة وحشية . . التفت الشرطة حول المنزل مع سيارات الإسعاف وقفت من بعيد أتابع الأحداث. فجأة رأيت صديقتها اللعينة مربوطة الأيدي. يا لها من ساقطة. لقد فعلتها الملعونة . . رأيت سهيلة عائمة في بركة من الدم علي الأرض. لقد قذفت بها من شرفتها. تكرار الموت يفسد نبض القلب . . لم أتألم بحرارة . فقط حزنت، لكن لماذا قتلتها . . العلاقات الجنسية لا تنتهي ابدا بالقتل . . ذهبت للمنزل أتابع الأحداث عبر شاشات التلفزيون . بدأت القنوات تنشر تفاصيل الخبر مع عنوان واضح وصريح . . (في حدث إجرامي. مقتل فتاة باريسية مسلمة علي يد صديقتها اليهودية). صمت . . بكاء . . صراخ . . كل شيء يمكن أن يذكر فعلته . . أنها سهيلة حاولت الاستنجاد بي . . حاولت إخباري بالمفاجأة، لكنني لم اسمع . . لم أنصت ولم اهتم. طلبت من المستشفي إجازة مفتوحة حتي أعيد ترتيب أموري من جديد. ظللت لشهرين بالتمام والكمال حبيس غرفتي . في الوحدة لا قيمة للوقت مادمت تنتظر الموت. عدت من جديد للعمل بعد عزلة تامة عن البشر . . لم استطع أن أجد حل لتلك الأسئلة . .

لماذا يختار الموت اعز الناس علي قلوبنا . . ؟

لماذا لا يموت الفاسدون . . ؟

لماذا يصبح القتل عملا إجراميا إن كان الجاني غير مسلم . ولماذا يتحول لجريمة إرهابية إن كان مسلما . في النهاية النتيجة واحدة . قتل نفس . . !

ابتسم مصطفي بعد غفوة في عالم الذكريات . . كنت اشعر بما يعاني منه مصطفي . . لطالما ابتسمت هذه البسمة مسبقا . بسمة الذكريات ما هي إلا نظرة عابرة علي جثمان ميت لن يحيي ابدا . اعتدل في جلسته ثم فوجئ بما اكتبه . سألني عن سبب كتابتي لذكرياته . . أعطيته الأوراق . .

ـ مزقها . .

ازدادت نظرته اندهاشا ثم قال . .

ـ لماذا . . ؟

ـ مزقها . . فلا قيمة لها . .

في الغالب علي المرء دائما أن يواجه ذكرياته، ويكتبها ثم يمزقها

كي لا يرى ضعفه أمامها. وحدها الذكريات تعري أرواحنا الهشة. لم يتردد مصطفى في تمزيقها.. ثم نهض من السرير، وقال يمكنك الخروج غدا إن أردت.. هززت رأسي بالموافقة.. كان القمر حاضر الكمال، والنجوم تزين بطريقة جميلة. لطالما أردت أن امسك النجوم بيدي، لكن لم أكن اعرف حقيقتي.. أنا هنا في الوحل.. عاجز حتي علي النظر إليها. أحضرت ورقة وبدأت اكتب..

لورين..

أنا هنا أعاني من فرط ذنوبي وظنوني. أريد الخلاص منك واليك. جسدي يفتقد لروحك، وعقلي يقتلني بذكراك. يا سيدة كل النساء هل تراك تتذكريتي الآن بخير. من معك الآن.. من يهون عليك مأساة الدنيا، ومن يمسح بأطرافه مدامعك.. في أي ركن تختبئين لتبكي بعد أن كنت ركنك الخاص.. لأي شخص تكتبين الآن بعدما كنت سيد كتاباتك، ولأي مدينة تنتمين بعد أن كنت كل أوطانك. يؤسفني أن يصحب ذكرك كلمة "كان" ويحزنني أن أتذكرك وابكي. لطالما كنت اعلم أن الرحيل أمر مفروض بيننا، ولطالما رفضت الفكرة، وما

بين المفروض والمرفوض فتك بي التفكير. لا شيء هنا صالح للحياة بعدك، لا شيء هنا يستحق المجازفة. كنت كل الحياة وما أدراك قسوة الحياة بعدك. أصبحت جثة تسير أرضا، وروحا يمزقها الحنين. بين الحين والآخر أعاني. أعاني وأتألم وأنت غائبة بينهم. صوتك حولي دون صدا له. رائحتك تختلط بأنفاسي وأنت البعيدة عني. عودي بأي شيء أخطأت، بأي جرم حدث لترحلي عني. أنت ابنتي، وأمي وحبيبتي. أقسم لك كل شيء في غيابك باهت. لا يستحق الحياة أبدا..!

الثامنة صباحا..

استيقظت من نومي. في المعتاد. أنا لا احتاج للمنبه؛ كي استيقظ. فقد قيل قديما أن الوجع يوقظك من نومك متي يشاء، وأنا والوجع صديقان حميمان. وجدت باقة من الورود علي الأرض. دخل مصطفي الغرفة فوجدني انظر للباقة بشغف، قرأت الورقة اليومية. (غدا سيصبح كل شيء علي ما يرام) شكرت مصطفي علي لمحته الجميلة، لكنه قال انه من فتاة الورد. أكره المفاجآت، وأكره التعبير الغامض عن الحب. سألته من جديد عنها، لكنه لم يعطني أي

خيط أستطيع منه معرفة صاحبة الورد. ارتديت ملابسي وخرجنا للمقهى لاحتساء القهوة. وحدها القهوة تقدم لنا كل الاعتذارات عن مأساة منتصف الليل دون مقابل. كان الحزن يسيطر علي مصطفي..

- ماذا بك يا مصطفي..

أشعل سيجارته، وارتشف رشفة من القهوة

- لا تهتم أنا بخير..

اعلم أن هذه الكلمة وحدها تخفي حزن، ووجع لا يطاق. نظرت إليه ثم قال دون مبرر.

- سأفتقدك يا عمر. أنت رائع رائع في كل شيء. صديقي.. الرجال أقوياء بطبيعتهم. انهض فلا شيء يستحق حزنك. الذين رحلوا لن يعودوا مهما تألمنا. ما الجدوى من البكاء إن كان العالم لا يهتم بما يحدث لك. دع للقدر الحكم. تابع في صمت انقلابات الحياة. سيجبر الله بخاطرك. ستبتسم وتتذكر تلك الليالي الحزينة التي عشتها إنها الحياة تعطي لنا كل شيء، وفجأة تسلب منا كل شيء دون سبب. المهم أن لا تنكسر ابداً. أن تقاوم العواصف وترفض الأمور المفروضة علينا. قاوم يا صديقي. قاوم..!

تعجبني ثقافة مصطفي وفلسفته. حتى الموجعين يرفضون الوجع ويبغضونه. لكن ما باليد حيلة. إننا مجرد أحجار علي رقعة شطرنج. تلهو بنا الحياة متي أرادت..

طلبت أمير علي الهاتف فقال انه في الطريق إليّ. أعطيت مصطفي رقم هاتفي، ووعدته بالتواصل معه كلما سنحت الفرصة. في الحزن قد يعطي لنا القدر ثمة أشخاص يحاولون مساعدتنا دون مقابل. مصطفي يبدو من هؤلاء. جاء أمير إلينا معه بعض الجرائد والمجالات. الميزة الوحيدة التي يتميز بها أمير هي عدم قراءته للصحف الإخبارية؛ لذا هو يعيش في سلام نفسي..

ـ منذ متي تتابع الصحف اليومية يا أمير.؟

ضحك. ضحكته العالية ثم قال..

ـ لا لا. إنها تخصك أنت. انظر..

كانت صورتي موضوعة علي المجلة ومكتوب (عمر النفادي يستعد لإطلاق كتابه الأول في روما)

تعجبت من اهتمام الصحف بالأمر . وكأنها إشارة أخري من القدر . . في الحزن سيمر عليك بعض المحطات الهامة قد تكون احدهم منجاة لك . إياك أن تفقدها . كانت هناك فتاة جميلة تجلس علي الطاولة المجاورة لنا . نظرت إليّ باهتمام وشغف .

أنا خجول جدا، لا اعرف كيف علي أن افعل في مثل هذه المواقف . أنقذني أمير من الموقف وبادلها هو نظرات الشغف . . اقتربت منا ثم قالت . .

- كتاباتك صعبة . جميلة وواقعية . . هل يمكنني التقاط صورة معك . . ؟

نظرت إليها ثم اعتذرت عن اتخاذ الصورة . . شكرتها علي كلماتها الجميلة فداعبها أمير بكلمات المجاملة . نظرت اليّ من جديد، ثم قالت . .

- أيمكن أن يخرج منا الحزن . . إبداعا . . ؟

- بالطبع . من أرض الحزن القاسية تنبت كلمات رطبة تهون مأساتنا . . من رحم الوجع يولد الإبداع . . !

شكرتني علي المعلومة ورحلت . . حضر مصطفي أخيرا، ومعه ورقتان . الورقة الأولى بعض الإرشادات الطبية، والأدوية اليومية

لمرض السكر. ابتسم وقال بالمناسبة مرضك مؤقت سيرحل قريبا إن ألتزمت بالأدوية. الورقة الثانية مكتوبة بخط عريض. (واصبر علي ما أصابك). شكرت مصطفي وعانقته. داعبني بكلمات جميلة قال إنني لست في حاجة لعلاج نفسي أنت فقط تحتاج لهدوء. يؤسفني أن أقول لك إن هذا أصعب ما ستناله في الحياة، لكن حاول. حاول فأنت اقوي من الحزن. وعدته بالتواصل معه. أخذت الورقتين، وحمل أمير الحقيبة، واتجهنا نحو الباب. في الخارج عالم آخر. عليَّ مواجهة عدّة حقائق، وإنجاز أهداف جديدة في حياتي. حتى، وإن كنت في عالم من الأموات. فمن العار أن يقتلني الموت بعد الموت. المهم أن هناك قاعدة ثابتة أدركتها مؤخرا. (كل شيء وارد)..!

الفصل الثاني..

(الحرب التي تخوضها ضد نفسك .. هي أصعب
واشد الحروب حتمية)

مر أسبوعان على مغادرتي من المستشفى. كانت فترة عصيبة جدا. كنت استيقظ صباحا احتسي القهوة ثم أتابع التلفزيون. لم أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي منذ رحيل لورين. توطدت علاقتي بمصطفى أكثر فأكثر. كان يأتي عندي يوميا بعد انتهاء عمله. أمير كان يرافقني بشكل يومي أيضا. كنا نحتسي القهوة صباحا، ونخرج من المنزل دون تحديد إلى أي مكان سنذهب. أصبحت أنام مبكرا هربا من مأساة منتصف الليل، واستيقظ صباحا قبل أن تكتمل الشمس. أهملت الكتابة والقراءة، واكتفيت بمتابعة أحدث التطورات الجديدة في الحقل. تأجلت الحفلة يومين بعد إلحاحي على هذا الطلب، بدأت اقرأ الرسائل البريدية باستحياء في الأسبوع الأول. في الأسبوع الأخير سافرت إلى مصر بمفردي.

هنا عشت خمسة أعوام في الصغر، تصادقت على شاب اسمه مراد كان يكبرني بعامين، لكنه كان بمثابة الأخ الأكبر والأب. لطالما

عانيت مع والدي. كان يحبني، وكنت أعلم صدق حبه لي، لكن لم يسبق أن اتفقنا علي رأي واحد. ربما اتفقنا أن لا نتفق أبدا. انتقلت بعدها للحياة مع أسرتي في باريس.

كان لقرار السفر فجعة نفسية لن اغفرها لأهلي. فعلاقتي الوطيدة مع مراد كانت أصعب مما أظن. حاولت نسيانه بالدراسة، لكن ثمة أشخاص لا يطويهم النسيان. أكملت دراسة علم النفس خلال هذه الفترة. لم أسلم من مخالب الحياة. أشخاص زائفون. وعود لم تتحقق. أحلام كُتب عليها الموت. كلما أرادت الحياة أن تخبرني بقبحها اتجهت لي. توالت الأحداث في الشرق الأوسط. الثورة التونسية، الثورة المصرية، مرورا بالليبية، ختاما بأحداث سوريا الدموية .كان كل شيء حولي يجبرني علي اتخاذ طريق واحد. الانتحار. .تلقيت صفعة قوية بعدما قرأت الأسماء المبدئية لشهداء ثورة مصر. كان من بينهم مراد غالي. كان الاسم يتردد في أذني كلما أردت الموت. .حاولت التعافي سريعا من كل هذه الصدمات. درست علم النفس مع العمل الإضافي كمدون الكتروني علي صفحات التواصل الاجتماعي. دعاني أحد أصدقائي لحفل صغير تلاقيت حينها بلورين. كانت جميلة جدا أو ربما أردت أنا وقتها

أن أراها بهذا الجمال . تعرفنا سريعا ، فكانت لورين مهتمة بالقراءة مع عملها كفنانة، تعمل في مجال التمثيل. تبادلنا المحادثات الالكترونية . . وارتبطت علاقتنا باهتمامات ثقافية واسعة . وفي يوم علمت بوجودها في متجر للغداء اتصلت بها، وطلبت منها الخروج كنت ارتدي معطفا أسود، وكانت ترتدي فستانا أبيض. قدمت لها خاتما فضيا لمعرفتي بولعها بالفضة. ومن هنا بدأت علاقتنا الغرامية . . كانت كل شيء، تحملنا معا أشياء لا تحتمل . كنا أفسد من إبليس، وأطهر من طهارة ملائكة . مرت بيننا عدّة مواقف لا تنسى . لطالما كنت أشعر إنها أبنتي الوحيدة. كنت أدللها دائما وأحاول الحفاظ على ابتسامتها الجميلة. وقبل اليوم المشئوم بدأت تزداد خلافاتنا، لكن كان قرار الرحيل مستبعدا تماما. لازلت أتذكر قبل قرارها مكالمة دارت بيننا . كانت الخلافات وقتها اشد حمية، لكن وأي منزل خالي من الخلافات بين أطرافه. كان خلافي معها كأب، وكان خلافها معي كحبيب. . اتصلت بها وتحدثنا عما يدور حولنا ومعنا . قرأت أن هتلر قال : قبل أن تواجه عدوك تخلص من عدوك الداخلي. لم يصل الأمر للعداوة معها، لكن طلبت منها تنحية الخلافات جانبا، فالأمر جدّي حقيقي، هناك أمور تدور حولنا ولابد

من التمسك جيدا لمواجهتها معا. عاهدتني بالبقاء لحل تلك الخلافات العويصة.. ومع أول ضربة لطبول المعركة رحلت. يا الله لورين. كنت تجيدين التمثيل، لكن أهنئك علي أخراج المشهد الأخير. كنتِ رائعة في كل شيء حتي في وقت رحيلك. ما أن دق الخطر عليك حتى رحلت عني. يا لكِ من جبانة.. ها قد رحلت لورين ورحل كل شيء معها. تقريبا تغير كل شيء في حياتي، عدا عشقي لها، وتصرفات فتاة الورد..!

اللبلة الأخيرة قبل حفل الإطلاق..

كنت علي أتم استعداد للحفلة أو ربما أحاول التظاهر أمام الجميع بقوتي. كان الليل يقترب وكنت اجلس علي مقهى العم ماركو احتسي القهوة مع الفودكا. طلبني مصطفي علي الهاتف، وقال إنه سيأتي بعد ساعة. رفضت مجيئه بطريقة دبلوماسية. نفس الشيء لم يتغير مع اتصالات أمير. كنت في أمسّ الحاجة للجلوس بمفردي. أغلقت الهاتف تماما بعد مكالمة الأخيرة مع مسئولة الحفل السيدة كارمال ثم أرسلت لي المسئولة عن إصدار الكتاب رسالة نصية تخبرني بمعاد الطائرة. حاولت التأقلم والاستعداد النفسي لحفل الغد.. فجأة

جاء الجرسون واخبرني أن هناك من ينتظرني علي الهاتف. فذهبت إليه..

- الو..
- عمر.. لورين حجزت تذكرة ذهاب لروما غدا..
- من معي..؟
- اسمعني جيدا. ستأتي لك في الحفل لتعكر صفو ذهنك. إياك أن تخضع لمكرها

حاولت أن اعرف المتصل من نبرة الصوت، لكن دون جدوى تابعت الكلام..

- المخجل أن هذه الرواية قد تتغير فقد تأتي لورين لتعتذر لك عن غيابها. انه أمر مربك جدا. طاب مسائك..!

عدت لطاولتي في حالة ذهول. لورين ذكية تعرف نقاط ضعفي جيدا. اللعنة علي أولئك الذين يعرفون نقاط ضعفك ويستغلونها. لم اصدق الرواية الثانية فلورين قاسية جدا وكل طرق

عودتها لم تعد كما كانت. . الغريب ما أن انتهت المكالمة فكرت في لورين، ولم اهتم بمن المتصل. لطالما كان اسمها يضيء عالمي. ناديت الجرسون، وأعطيته ثمن القهوة، وعدت للمنزل أستكمل استعدادي النفسي للغد. في الحقيقة حاولت النوم في غرفتي لكني فشلت. . منذ رحيل لورين لم أنم ليلة واحدة في غرفتي. ثمة أماكن ترفض الرحيل. لازالت آثار أناملها علي مكتبتي. صورتها معلقة علي الحائط. عطرها ملازم لملابسي، وآثار ليلة ذاب بيننا العشق لا تزال علي سريري. خرجت من الغرفة لأتصفح أهم الأخبار علي التلفاز. . فاجأني خبر زيارة لورين لروما لأسباب غامضة. انقطع تركيزي تماما. فلا سبب واضح لهذه الزيارة. . فتحت الحاسوب أتابع أحدث الأخبار. . لا شيء جديد الوطن العربي يواصل السقوط بين الأنظمة الديكتاتورية. قمع ديني في الشام وبغداد. الخليج غارق في الطائفية، وحرب المياه تدق ناقوس الخطر في مصر. رغم حزني لخروجي مصر إلا إنني بعد فترة، تأكدت أن الوطن العربي غير مؤهل للحياة الآدمية. مراد لو كنت تعيش بينهم لانهلت بكتاباتك غضبا عليهم. كنا أطفالا، وكنت أراك تتحدث عن الحرية كشباب ثوري يحطم كل أصنام الظلم. أغلقت كل ما هو علي صلة بالعالم

الخارجي، واتكئت علي سريري أحاول إعداد ذهني للغد. جلست أكتب عما يدور في خاطري..

لورين أتمنى أن أراك غدا. انه يوم فريد لطالما كنا نحلم سويا به. أيمكن أن يحدث وتأتي؛ لينتهي كل ما بيننا من خلاف. طال غيابك يا حبيبتي وما أدراك مرارة غيابك، أشعر بغربة من كل شيء حولي، حتي أنا افتقدني بشدة. عودي فكل شيء باهت وسخيف يا حبيبتي..!

استيقظت صباحا علي أجراس الكنيسة. انه اليوم المنتظر. جئت السيدة تريزا صاحبة المغسلة، وأعطتني بدلة الحفل. كانت ملامحها جميلة. شعرها الأبيض يعطي لها هيبة مميزة وخاصة وبشرتها البيضاء مع تجاعيدها، تعطي رونق خاص لها. الذين عاشوا طويلا تملكت الحياة منها فلم تسلم حتي ملامحهم. شكرتها باحترام ثم سألتني علي معاد الطائرة فقولت لها ستنطلق في الرابعة عصرا قالت هل يمكنني تناول فنجان قهوة معك. رحبت بالفكرة، فلم أكن مشغولا بشيء، فالساعة الثامنة صباحا ومصطفي وأمير سيأتيان في الواحدة ظهرا.

طالبت مني أن تعد هي القهوة. رفضت رفضا تاما، لكنها أصرت علي الأمر، فلم أمانع. لم تتأخر، كنت أرتب غرفتي وخرجت، وجدتها جالسة تقرأ كتاباتي. ضحكت، سألت عن أي شيء تبحثين يا سيدتي فلم تجب، نظرت اليّ، ومسحت بأناملها رأسي ثم قالت. . الحياة خلقت لعقاب آدم، ولم تخلق تكريما له. . منذ بداية الكون والحياة مُرَّة، لكنها ليست دائما كذلك. أحيانا تسلب من الفرحة لتعطي لنا الشهرة. . وقد تسرق منك الأمان؛ لتهديك السلطة. وربما تأخذ منك الراحة لتهب لك المال. . البعض يرحل عمدا والآخر يختاره الموت. . وهناك من تقف الحياة عائقا بينهم. لو لم يسلب القدر يوسف من أبوه يعقوب لما أعطاه الله النبوة. ولو أن الحياة اختارت بقاء موسي مع أمه، لما سمعنا عن نبي الله. . ولولا تضحية إبراهيم، لكان إسماعيل في علم الغيب. حتي نسوك مريم، وعزلتها أتي بنا بيسوع. إنها الحياة ترفض أن تعطيك كل شيء، وتأبى أن تأخذ منك كل شيء. . فقط استمتع بما لك من نعم. وإياك أن تبكي يوما علي ما قد مضي. وتعلم دائما يا بني. . من الحزن يخلق الإبداع. . ومن رحيم الغضب يولد الصفاء. . تأقلم دائما عليها وتذكر خلق من كل شيء ناقص. . فالكمال للخالق وحده. . حتي السعادة قد تأتي منقوصة. . !

يقال إن السيدة تريزا لا تهوي القراءة، لكن أؤمن إن هناك دروسا، وعلم آخر اغني وأفضل من علم الكتب. إنه علم الحياة. تلك المدرسة التي لا تنفد أبدا من الدروس والعبر وها هي السيدة العجوز مثال حي لهذه المدرسة. . أشعلت سيجارتها تتابع ملامحي وترشف رشفة من القهوة، كأنها تنتظر جاوب مني علي حديثها، لكني أخذت الصمت ردا علي كلماتها، فانتصرت بحكمتها، وثقل كلماتها. مسحت بيدها علي رأسي مجددا ثم قالت عليك أن تصبح قويا أكثر من ذلك. . الرجال لم يخلقوا للبكاء يا بني. . أخذت الرشفة الأخيرة من القهوة، ثم واصلت حديثها عن قوة الرجال. . قديما كان هناك رجل يدعي مارتن. ولد قبلي بخمسة عشر عام من الحرب العالمية الأولي. كانت الأجواء حوله مضطربة فلقد فقد والده في أحد غارات ألمانيا علي باريس. . عاش في المخيمات علي حدود بين أسبانيا وباريس وقتها. . كان له صديق حيم اسمه جوزيف تربيا معا علي فنون القتال والحرب، وفي احد هجمات الألمان علي المخيمات التابعة لباريس اتخذوا بعض الصبيان لمنقلاتهم الحربية، وشاء القدر أن يكون جوزيف منهم؛ لينتضم إلى معسكرات الجيش الألماني. وبعد خمس عشر عاما ومع إطلاق شرارة الحرب اشتدت المعركة، واشتد معها

بنيان جوزيف ومارتن، وأصبح كل منهما قائد تابع للعدوان فرنسا وألمانيا وفي أحد المعارك كانت هناك ولاية تابعة لفرنسا أتخذتها ألمانيا محتلا لها. كان قائدها جوزيف وأمر قائد مارتن الاستيلاء عليها وإنقاذها من الاحتلال الغاشم. بدأت المعركة دون رحمة. في قانون الحرب لا وجود للشفقة والسلام. كانت الولاية تحت سيطرة الألمان بقيادة جوزيف يسن قوانين النازية الظالمة علي سكانها من فقراء فرنسا. وفي آخر جولة نجح الجيش الفرنسي دك كل حصون الألمان عدا الحصن الملكي الذي يسكنه القائد. اتجه الجنود وابادو كل من في الحصن بحراسته، لكنهم لم يستطيعوا دخول قصر القائد. فأمر قائد مارتن أن يقتحم الحصن، ويقتل القائد؛ ليرفع علم فرنسا علي الحصن، ويعلن عودة الولاية لباريس. وإذا بالمواجهة بين الصديقين مارتن وجوزيف. مؤسف أن تضع تلك الحياة خيارا بين العزيز والأعز. فوجئ الاثنان معا بالمواجهة. لطالما كانا معا في كل شيء، ولكن ثمة مواقف يجب أن يضحي احدهم بالآخر. إما أن يقتل مارتن صديقه جوزيف ليسعد شعبا بأكمله، و إما أن يقتله جوزيف ويعلن بقاء الولاية تابعة للألمان. كانت مواجهة عنيفة. في الختام مات جوزيف، ولم يفعل مارتن شيئا سوى معانقته بعد قتله، وعادت

الولاية تابعة لفرنسا وعمت الأفراح في أجواء المدينة. لكن عاش مارتن بسعادة منقوصة. وما ادارك السعادة المنقوصة.. بين لذة الانتصار ومرارة الفقدان) إذن إنها الحياة وما نحن إلا رقعة شطرنج عليها تلهو بنا كيفما تشاء..!

أنهت السيدة تريزا حديثها ورمقتني نظرة أخيرة دون أن تنتظر مني رد مرة أخري ثم استأذنت في الخروج دقت العاشرة صباحا فعدت بعد تفكير قاسي في حديثها وقصتها. أخذت الحمام الأخير، وبدأت في إعداد حقيبة السفر للإقامة بعيدا عن منزلي لمدة ثلاث أيام أمرا مرهق. جاء أمير برفقة مصطفي مبكرا. تناولت كأس من الفودكا كذلك أمير لم يشاركنا مصطفي لأسباب دينية كنت اعلم أنها محرمة، ولطالما شعرت بالذنب تجاه ربي، لكن ما باليد حيلة. اللعنة علي التعود. وقفنا في الشرفة نتحدث عن عدّة أمور تخص الحفل. أفسدت حديثهم حينما قلت كفاكم حديثا عن اليوم، سيمر كما لو لم يكن. نظر إلى مصطفي ورفض بنظراته طريقة ردي الجافة. بعدها انطلقنا سويا نحو المطار. كانت الساعة الثانية ظهرا، جلسنا منتظرين وصول الطائرة، خلال الساعتين لم يكن هناك شيء يذكر. فقط المطار

مزدحم وأمير ومصطفي في مرافعة لتقيم ملابس القادمات والمغادرات من المطار أما عني فلم أكن أبالي سوى بما سيحدث في الحفل. . وصلنا العاصمة الإيطالية في تمام الساعة السادسة.

كانت أجواء ديسمبر تسيطر علي روما. استقبلتنا في المطار السيدة ماركل، التي سألتني عن لورين، فسابقني أمير للرد، واخبرها أنها لن تأتي هذا المساء. استعجبت من الرد، وقالت إنها علي علم بوصولها علي متن هذه الطائرة أيضا. فجأة تحولت من كاتب إلى مراقب أتابع الوجوه المغادرة من المطار. في الغياب تتشابه الوجوه، ويبقى وجه واحدٌ مختلفٌ لن تراه أبدا. . أصر مصطفي علي مغادرة المطار فورا، وبالفعل غادرنا، وركبنا السيارة المخصصة لنا لمشاهدة معالم روما الأثرية. . انبهر الجميع من هول المباني والتماثيل. . جلست أنا بجوار النافذة، لكنني لم أكن أتابع شيئا سوى النظر بين الوجوه عسي أن أجد من بينهم لورين. بالمناسبة أكثر الناس حبا في الجلوس بجوار النافذة أكثرهم جهلا بمعالم الطريق. مرت ساعة ونصف، فطلبت من ماركل الوقوف وأخذتها لتناول القهوة قبل الانتقال للحفل. داعبني مصطفي بالعربية عساك أن تجد بين نساء روما امرأة تطيح بعقلك يا صديقي. ابتسمت واتجهنا إلى المقهى بجوار قاعة

المؤتمرات. لست معروفا هنا، وهذا كان سبب كاف لأخذ قسط من الهدوء النفسي. أقتربت مني السيدة ماركل وقالت:

إن هناك فتاة أتت بالأمس وأعطت لنا بعض المعلومات عنك.. ظننت أنها لورين، لكنني تذكرت أن ماركل تعرف جيدا لورين. قلت لها من هي؟ فلم تجيب. قالت إنها لا تعرف عنها أي شيء. فقط أعطت لها بعض المعلومات واللمسات الأخيرة لديكور الحفل ثم رحلت. لم يسخر مصطفي وأمير كعادتهم، فشعرت بعلمهم بالأمر، لكن لم يتسع لي الوقت لسؤالهم. طلبت منهم ونحن في الطريق للقاعة منع أي سؤال شخصي عني. أتفقنا ودخلنا القاعة معا. كانت الأجواء مضطربة، فلا احد خارج مرسيليا يعرف الشخصية الحقيقة لي. بدأت أتابع وجوه الحاضرين بحياء. أنا أكره التجمعات والأماكن المزدحمة. أشعر بضيق يجتاح صدري، أخشى وجود الناس، نظراتهم، ردود أفعالهم، همساتهم، أتوقع منهم أي فعل يقتلني، أو يفسد سموي وهدوئي. تابعت السيدة ماركل الحديث عن الكتاب، وعني. لم أكن أهتم بما تقوله. كنت منشغلا في وجوه القادمين والمغادرين من القاعة. لورين كان تقتحم كل الاماكن رغم إنها لم تكن تشغل مقعد واحد في القاعة. ثمة أشخاص يرحلون عنا

ولا يرحلون منا . همس في أذني أمير: عد يا صديقي لن تأتي لورين أبدا. الآن حان وقت الأسئلة الشخصية. مر السؤال تلو الآخر دون أي تأثير فعال عليّ، حتي قصفت أحداهن سؤالا فتاكا. . سألتني لماذا لم تأتي معك الآنسة لورين. . هنا صمتت تماما. أكثر ما كنت أخشاه قد حدث. إنه وقت الحديث عن لورين. تنهدت وسندت ظهري علي الكرسي. كانت السيجارة الأخيرة في العلبة، أختلستها، لكنها فشلت في عودة اتزاني . . يحدث أن يسألك أحدهم عن الماضي فتبكي كطفل فقد أمه. .نظرت لأمير ولمصطفي فتعمدا تجاهلي. فجأة استشهدت بما قاله الشاعر العظيم فاروق جويدة. . (كان في عيناها شيء لا يخون لا أدري كيف خان). وقفت أحد الصحفيات وقالت إن هذه الجملة لا تعكس حقيقة فراقكم. . نظرت إليها، وقلت في عزم لا أحد يعرف الحقيقة. حل الصمت علي القاعة، ثم طلبت إحداهن تنظيم لقاءات أسبوعية في علم النفس، وأفقت بشكل مبدئي، ثم وقف الجميع يصفق.

كان لابد أن يسدل الستار في الختام. كانت لحظات الختام فارقة. بدأت الجماهير تتابع في صمت لحظات الختام. حين يملك القدر زمام الأمور تختلف المعايير، وتنقلب الطاولة رأسا علي عقب. .تحولت

أنظار المشاهدين نحو لورين الغائبة. لم أسلم من صراع النظرات القاتل. البعض يقول إنني خائن، والآخر يقول إنها خائنة. لا أحد يستطيع أن يجزم بسبب رحيلها حتي أنا. البعض كان يظن إنني سأرد بجزم علي اتهامي بالخيانة. إرضاءا لغروري وكبريائي، وما تبقي من كرامتي، لكنني لم أفعل، فلا سبب واضح حتي الآن لغيابها رغم أن لورين بدأت بكيل الاتهامات، وصراحة لم أكن اعرف إنها تحدثت مع احد في أمور تخص علاقتنا. فقط انتهت الحفلة أو علي وشك الانتهاء. تذكرت مشهد قتل عصابات المافيا لقرد المهرج الهندي. فقط أسدل الستار بعد إعلان الخبر. كان المشهد الأخير مؤثرا. لقد تخلي عن مكانه علي خشبة المسرح. اتخذ من أماكن المتفرجين. مقعدا بعيدا عنهم. أشعل سيجارته. تاركا قدمه اليمني تعانق قدمه اليسرى. هكذا كان يجلس الملوك. وفي هدوء تام. ظل يراقب الزمن وهو ينتقم من المجني عليه لأجله. كان الأمر سخيفا. بشعا. لكن بعيدا عن الكذب كان ممتعا أيضا. عدت من شرودي للحفل، بدأ البعض في المغادرة وإذا برجل قادم نحوي يحمل باقة من الورد. ظننت إنها من لورين فابتسمت واتجهت أنظار الحاضرين نحو الباقة الوردية. وضعها ورحل دون أن يترك لي الحق في سؤاله عن الراسل، لكنني

التفت لورقة في وسط الباقة . قرأتها بشغف فقلبي يدق من شدة الفرح . ولكن لم تكن كما أظن. إنها مكتوبة بخط رفيع جميل وجذاب كمخطوطات الشعر العربية قديما . (منذ اللحظة الأولي وأنا أراقبك وأتابعك سرا. كن بخير لأجلي . . ديرا) . . !

انتهت الحفلة، وطويت معها صفحة الكتاب المنتظر مع شطب آخر سطر باسم لورين . لقد غابت عن اليوم الذي طالما انتظرته .

أخذت شهرا كاملا في عزلة، أتمايل كورقة في قلب عاصفة بين الحنين والشوق والشغف والكبرياء. قلبي يصر علي البقاء بين نوبات الماضي، وعقلي برفضه، صراع قاس بين قلب عاطفي، وعقل أنضجه الوجع. كان علي قتل أحدهم بدم بارد. بقايا صراع الماضي مع مستقبل ينتظرني بشغف. كان عليّ اتخاذ القرار في وقت تضع لك الحياة فيه عدّة خيارات. وأيا كان خيارك، فلن تعود كما كنت بعدها. جمّعت كل الرسائل التي كتبتها لها مع صورنا القديمة، وما تبقي من ذاكرتي وقلبي للورين، وأحرقتهم كما يفعل قدماء الهند مع الموتى،

ثم وضعتهم أرضا، ومشيت عليهم كأرض جديدة في عالمي. انتهى كل شيء، ولم تعد لهذه الغيبة مكانا في قلبي وذاكرتي. بعدها زاد اهتمامي بالحلقات الأسبوعية في معالجة الاكتئاب والوحدة. .كانت حياتي روتينية. استيقظ مبكرا أتصفح أحدث الأخبار. .أتابع أحدث التطورات في الشرق الأوسط، اخرج للسير في أنحاء باريس، ثم متجر العم ماركو ومن بعدها السهر مع أمير ومصطفي.

بدأ اسم لورين يعود ليغازل عالمي سمعت أنها في علاقة جديدة مع احدهم. لم أبال فأنا أؤمن أن تفتك بي العزلة خيرا من أن يسكن قلبي العهر. .نعم إنها عاهرة القلب لا تختلف عن عاهرة الجسد فكلتاهما تبيع أعز ما تملكه. بدأت في الجلسات العلاجية كنت اكذب فأنا المعالج في أمسّ الحاجة لمعالج نفسي لي، لكن قررت أن انسي وجعي بأوجاع الآخرين، وها قد حدث وبدأت أول الجلسات العلاجية في باريس. توقعت أن تأتي ديرا في أول جلسة فمنذ الحفل لم اسمع شيئا عنها. .لكن هذا لم يحدث. . كان لدي شغف بمعرفة هذه الفتاة. للأسف ليس كل ما يتمناه المرء يدركه. حاولت تنسيق ديكور العيادة وتهيئة أجواء مناسبة للزائرين. في البداية كانت الزيارات علي

استحياء لم انجذب لأي شخص من الزائرين حتى أتت إليّ إحداهن . كان اليوم مملا، وصلت المكتب متأخرا . فوجدتها في انتظاري في الغرفة، بادلتها كلمات الترحيب الاعتيادية . كانت شخصية معقدة، ويبدو على ملامحها علامات الغرور والثقة . لم انفر من طريقتها لكني أؤمن أن الأنثى الجميلة لا يليق بها إلا الغرور. كانت شقراء ذات قوام متناسق جميل وعيناها الخضراء لهما بريق خاص يستحق أن تنجذب إليه رغما عنك. جلست على السرير بطريقة تثير شهوة أي رجل ناضج، لكن شعرت أنها تتصرف بتلقائية. أحضرت فنجان القهوة، وبدأت في النظر إليها محاولا اكتشاف ثغرة لاقتحام غرورها . المغرورون دائما ما يرفضون شعور الضعف، لكنهم أكثر الناس ضعفا، وحاجة للمساعدة . .

- رائع تنسيق ملابسك . الأبيض حين يعانق الرمادي يخلق هيبة مميزة . تماما كالأسود والأبيض معا.

ابتسمت ابتسامة شكر . ونظرت حولها كأنها تهيئ نفسها للحديث وتريد أن يلتفت لها من حولها . .

ـ الأسود يعري الحزن والأبيض يدل على السعادة. . صراع الألوان لا ينتهي بين مرتدي الأبيض والأسود. . في كلا الحالتين كل هذا كذب. . !

ـ وماذا يعني لك الرمادي. . ؟

بحركة يملئها الدلال هزت شعرها. . ثم أجابت

ـ أناقة ليس أكثر

ـ والأبيض. . ؟

ـ لأثير تساؤلات البعض مثلك. . !

كانت مشاكسة تضع النقاط فوق الحروف بأسلوب مدهش. . تستخدم الغرور سلاحا ضد أي عدو يحاول التلاعب بمشاعرها أو اقتحام كبريائه. استطاعت أن تخرسني للحظات ثم اعتدلت في جلستها كأنها تعلن انتصارها. شعرت للحظات أن "فريدة" جاءت إلى هنا للحرب النفسية، وليست للحديث والعلاج. . الأسلوب الجاف ينهار أمام الرد الطيب. .

ـ تعرفين يا فريدة. وجودك هنا يجعلني العن الحياة أكثر فأكثر. . ثمة

نساء لا يليق بهن الوجع أبدا . . ربما أنت منهن . . !

- ومن قال إنني قد أتيت هنا لأحكي عني . . !

- هل أنت غبية لتضيعي لحظة واحدة في هراء . . الوقت لا يعطي ألا لمن يستحق وأنت تجيدين استخدام الوقت . . لو لم تأتي إليَّ هنا للحديث عنك ، فلماذا انتظرتيني أكثر من نصف ساعة بالخارج؟!

عاد الميزان لطبيعته . . في المعارك النفسية ليس من السهل استفزاز مغرور ، لكن ما أن يحدث وينكشف أمامك . . وحينئذن تستطيع معرفة كل شيء عنه . . أجابت

- هل تراني مثيرة . . ؟

منذ اللحظة الأولي من وجودها وأنا اشعر بشيء مريب في ملامحها كأنها تريد الحديث بين ذراع احدهم . في بعض الأحيان نحتاج فقط لعناق ليبدأ حديثنا عن الوجع . . نظرت إليها ثم أجابت بخبث . .

- إي إثارة تقصدين . . ؟

اقتربت مني وهمست بإغراء . .

- أنت تعرف أي إثارة اقصد . .

ـ لم اهتم بما تقصدينه علي أي حال

ـ أنت تكذب . أي رجل هذا الذي يرفضني

ـ ربما أنا . علي إي حال يغريني كبرياتك أكثر . .

كانت أنفاس كلماتها تعانق أنفاس كلماتي لكن حقا لم تغرني . .

ـ إذن لماذا خانتني الحياة . . ؟

ـ من منا لم تخُنه الحياة . المهم في أي شيء خانتك . . !

وضعت أناملها علي شفتي بإغراء أكثر ثم قالت . .

ـ في الحلم . .

ـ وأي حلم خانك . .

استكملت حديثها وهي تواصل مداعبتي . بدأت أمل من طريقتها لكن تبدو هي أكثر راحة في الحديث هكذا . .

ـ الزواج يا دكتور . . لقد خانتني في حلمي . .

ثمة إجابات تضعك بين مفترق الطرق . . استكملت

ـ سأحكي لك كل شيء لكن اسمح لي أن اقبل شفتيك أولا . .

التهمت شفتاي بشهوة. كان مذاق شفتيها رائعا، لكنه لم يغرني، وأفقت لاستكمال حديثها أو ربما وافقت لأنني في حاجة لبعض المداعبة. أيضا تذكرت الليالي الملتهبة مع لورين.. نظرت لي مباشرة بعد القبلة وقالت..

- حدثني عن شعورك إذن.. بالتأكيد لم تستمع بي أنا لم افشل في إثارتك، لكني فشلت في إثارة قلبك.. أليست هذه خيانة لقلبك..؟

حان الآن وقت الراحة. كانت ساعة مرهقة جدا طلبت منها الخروج والعودة بعد نصف ساعة من الآن.. رحبت بالأمر وخرجت علي الفور. خلال النصف ساعة جاءني اتصال من أمي عاتبتني علي غيابي المتواصل وهنأتني علي الكتاب. وعدتها بزيارة جديدة وانتهت المكالمة..

أحضرت ورقة وكتبت بخط عريض..

"المغرورة..فرويدة"

"فرويدة مغرورة. تعرف جيدا كيف تستغل جمالها حيال أي شخص. لا يمكن توقع رد فعلها أبداً كذلك لا يمكن الحكم عليها سريعا. تبدو مشتتة في نظراتها، لكنها تخفي قلقها الدائم بنظرة ثاقبة. رائحة أنفاسها ممزوجة بالتبغ والكحول الغريب أن رغم ملامحها المثيرة إلا أنها تحمل جزء كبير منع ملامحها البريئة. أشفق علي هؤلاء الذين يحملون ملامح بريئة ويتصرفون بوقاحة. لا تستطيع ابداً الحكم علي أفعالهم أو اتهامهم بأي شيء. فرويدة ليست مغرورة لكنها حرصت أن تبدو كذلك"

دخلت المكتب من جديد..

اعتدلت في جلستها وأخرجت من حقيبتها التبغ مع أوراق البافرا الرقيقة. نظرت لي بابتسامة خبث، ثم واصلت الحديث، وهي تحشو الورقة بالتبغ.

- هذا ما حدث. كنت كهذه الورقة الناعمة أريد فقط السلام. السلام لا أكثر. بدأت الحياة في حشو كل مخالبها مثلما افعل أنا

الآن مع الورقة. كنت أعارض، لكن ما باليد حيلة ما أن أحكمت الحياة قبضتها علي كياني؛ حتى أصبحت هكذا كما ترى. لفافة تبغ مملوءة بالتبغ الفاسد. لا أحد يهتم بما أعاني منه. فقط أنا لفافة تبغ قاتلة رغم ما أحمله من جسد ناعم ومثير.

كانت رائعة في وصفها للحياة. لكنها أثارت فضولي مرة أخري.

- كيف خانتك الحياة؟

- خذلت وعدها. كنت علي علاقة بشاب وأنا ادرس الطب. كنت أجده رجلا في زمن أصبحت الرجولة فيه ارخص من علبة التبغ. أستطاع أن يعوضني عن كل شيء. كنت أجده أبا لي وأخا وصديقا وعاشقا يجيد التعامل مع أنوثتي. مميزا في كل شيء؛ حتى في قسوته، يقسو وهو يداعب ملامحي بأنامله. أردت العيش معه، وهبته كل وقتي واهتماماتي ومشاعري. حقا كان متكاملا في كل شيء حتي في فقره. فقير لم يقدم لي سوى مشاعره، وما أصدقها وأغلاها، لكنها لم تملأ عين أبي عندما جاء ليطلبني للزواج. فأنا من أسرة ثرية وهو فقير جدا. أردت الحياة معه فقط دون شروط. وحدهم الفقراء يعطون لك كل مشاعرهم دون مقابل.. يقدمون

لك الحب ولا ينتظرون منك سوى مبادلة المشاعر. . كنت أبحث عن هذا الذي يقدم لي السعادة دون أي مقابل. . أحببت فقيرا ولم تحب الحياة حبنا. . رفض أهلي الزواج منه واتهموني بالجنون. حاولنا عدّة مرات كان مكافحا، يخوض حربا شرسة لابد منها للفوز بي. ظل يردد أن 'شيئين في الحياة يستحقان أن تموت لأجلهم. وطن دافيء وامرأة جميلة' ثم يختمها بقبلة علي رأسي بجملته المعتادة. . 'وأنت أجمل النساء يا حبيبتي'. حاولنا معا الصمود في وجه الحرب اللعينة. . لكن مهما صمد الجندي أمام المدفع سيقتل لا محالة. فالحياة جدا ملعونة.

كانت فرويدة تتحدث بلهجة كبرياء مبتكرة. . كأنها ترفض الاعتراف بهزيمتها، رغم حديثها عن سحق الحياة لها. سلاما لأولئك الذين يجيدون إخفاء هزيمتهم بنظرة كبرياء، صمتت فرويدة. . طلبت منها استكمال الحديث. نظرت للساعة المعلقة علي الحائط. . كانت الساعة العاشرة مساءا فاعتدلت في جلستها واستعادت شرودها سريعا ثم قالت سأرحل الآن. .

ـ لقد تأخرت جدا علي جوزيف. . متي يمكنني المجيء لهنا؟

- أي وقت مناسب لك؟

ضحكت بسخرية. هي تفهم جيداً إنني أعطي لها ما يرضي غرورها وكبريائها..

- بعد غد. السادسة مساءاً. اتفقنا..؟

- اتفقنا..

عانقتني ثم خرجت..!

رحلت في دهاء وهي تعلم بحر الأسئلة التي تقذفني إليه. ماذا حدث بعد أن رفض أهلها زواجيهما. لماذا تهوي الحديث حين تمتلكها الشهوة ومن هو جوزيف. أخرجت القلم وحاولت ترجمة هذه الفتاة غريبة الأطوار.

رسمت خطوطاً طولية وعرضية وكتبت أهم النقاط التي تحدثت عنها. حاولت البحث عن خيط يدلني علي شخصيتها، كل الأمور حولها كانت غامضة. شعرت بخيبة من محاولة توقع وكشف فرويدة. خرجت من المكتب واتجهت لمتجر العم ماركو، جلست أتابع الناس حولي. من عادات المتجر تهيئة وقت مناسب للعشاق والبؤساء مثلي

بعد منتصف الليل. .هدأت الأضواء وبدأ كل منهم يعزف منفردا في صمت. .هناك يجلس رجل ومحبوبته، وتجمعهم نظرات الحب. أحدهم يضرب الكوب بالملعقة بطريقة عشوائية هذا ما يسمي الانتظار. .أحداهن ترسم خطا من الكحل علي عينيها تبدو عليها غريزة الانتقام. .احدهن تجلس بمحاذاة النافذة تنظر للسماء ثم تنكسر نظراتها بابتسامة باهتة. هنا تكمن الخيبة. بجوارها ترسم فتاة علي ورقة بيضاء ثم تمزقها في كل مرة. ربما تمر بنوبات حرب الكبرياء والخضوع. رجل في الأربعين يتابع الجالسين مثلي، لكنه يضرب الأرض بقدمه اليسرى، ويأكل أظافره بوحشية. هذه علامات القلق. شابة في العشرين تلعب بخصلات شعرها بتباهي وتضع أحمر شفاه، رغم ملامحها النفيسة النرجسية وما أدراك خطورتها. .وشاب يدخن بشراسة وعيناه مبللة بطريقة ملفتة ربما هذا ما يدعي الحزن. بعد منتصف الليل كل مشاعرنا صادقة وحقيقة وحدهم الأنقياء يعانون من كآبته وعتمته. عزمت على الرحيل فكل شيء حولي يجبرني علي جرعات جديدة من الاكتئاب. رحلت عن المكان وذهبت للمنزل. كان مصطفي بالداخل يدخن هو الآخر بشراسة. .

- كيف حالك يا عمر. . ؟

- أنا بخير. . افتقدتك. .

- هل تحدثت مع ديرا. . ؟

- من ديرا. . ؟

استعجب من جوابي السخيف. . ثم قال

- ديرا. . فتاة الورد يا رجل

- لم نتحدث بعد. .

- علي أي حال هي تراسلك كل يوم. . وفي انتظار ردك

- سأقرأ رسائلها اليوم. .

- ماذا عن الجلسات الأخيرة. . ؟

- لا جديد. . الاكتئاب يسيطر علي الجميع. دعك مني، ماذا عنك؟

تمتم واخذ رشفة من القهوة ثم قال. .

- لم استقر في حياتي بعد. .

- كيف. .

- عمر أنا لست بخير أصبحت لا أبالي. أترنح بين الأمل واليأس، كورقة في مهب عاصفة. جسدي منهك، يغفو حيثما يشاء، ولكنه يفقد لذة النوم العميق. . لا اعرف ماذا أصاب

قلبي . فالأخبار السيئة لم تعد تبكيني . والأخبار الجيدة تمر دون أي محاولة مني للاهتمام بها. أحدهم قال إنني شخص سيء. تألمت. تألمت وتمنيت الموت. وأحداهن قالت إن عيناي فاتنة . تبسمت وأردت معانقة الحياة . يبدو أن شيء بداخلي لم يعد كما كان . فأضخم الأشياء لم تعد تبكيني . لم تعد تسعدني . وأبسط الأشياء تقتلني أو ربما تعيدني للحياة!

صدمتني كلماته . واصل حديثه . .

دعك مني كل هذا سيمر مهما حدث . ذهب مصطفي للنوم وخرجت أنا للشرفة أتابع اكتمال القمر . أمر فرويدة كان المسيطر علي عقلي. كيف أستطاعت هذه المغرورة إنهاء الجلسة لصالحها . .

تنهدت بعد محاولاتي المخيبة في فهمها او إيجاد مدخل لشخصيتها هي تهوي الحديث وهي غارقة بين لذاتها الجنسية . لماذا وافقت علي مداعبتها الملتهبة . هل اتخذت الجنس طريقا لنسيان لورين الغبية . أيمكن خيانة مشاعري للورين علي جسد فرويدة . دخلت الغرفة وفتحت الحاسوب اقرأ الرسائل البريدية . كنت ابحث عن رسالة

واحدة تعيد لي الحياة، لكن دون جدوى الذين يملكون أمر حياتك لن يعطوها لك مهما حدث. . جاءتني رسالة من ديرا. .

- دكتور عمر. . كيف حالك. . ؟

- أهلا ديرا. .

- دون مقدمات. . أيهما أصعب الفقدان أم الانتظار. . ؟

استعجبت من سؤالها المفاجيء. توقعت أن تكون رسالتها روتينية كمعظم الرسائل التي ترسل لي. . أجبت. .

- المشكلة ليست في الفقدان، لم نخلق للكمال أبدا. الفقدان لا يأخذ الأشخاص. ثمة أشخاص يرحلون لكن هناك من يرحل ليأخذه معه سعادتنا وذكرياتنا وحياتنا في وقت واحد. هذا ما يؤلمنا يا ديرا. . !

قطعتني في الرد وقالت

- دعني أحدثك أنا عن الانتظار. .

صمت فكانت إشارة مني للموافقة. .

- الانتظار. أشبه بالسرطان يتسلل في عروقنا ليفسد كل ما هو جميل حولنا. يجعلك شخصا مهلهلا. لا مرسى لك على شواطئ

الكبرياء، ولا أرض لك تسقط عليها بعد خضوعك. كنجمة محطمة في الفضاء لا مستقر له. اقتباسا من كلامك، فالمشكلة ليست في الانتظار فقط. المشكلة أن يأتي المنتظر في الوقت الخاطئ الذين قالوا أن تأتي متأخرا خيرا من أن لا تأتي كذبوا. فما فائدة الحب أن أفسد الانتظار قلبك. وما الجدوى من الماء أن بارت الأرض. حتي الوردة الذابلة لا تحيي مجددا من الشمس الساطعة. أرجوك لا ترد علي هذه الرسالة. طاب مسائك..!

أنهت المحادثة بغموض وقوة. أتساءل من أعطى الحق لهؤلاء الذين يتركونا في فوضي عارمة ويرحلون عنا. حتي ديرا لم تكن رحيمة بي هذا المساء. كانت ليلة الجمعة فاتخذت قرارا بالجلوس في المنزل، والاكتفاء بالقراء في صباح الغد. حاولت النوم فانا من هؤلاء الذين يجيدون الهروب من الضجيج بالنوم، لكن فوضي عقلي كانت أكثر مما ينبغي أخذت بعض الحبوب المهدئة، وحاولت من جديد هروبا من حنين لورين، وغرور فرويدة، و فوضي ديرا. أحيانا تظن أن العالم اتفق أن يبكيك. كانت ليلة مفزعة..!

أيقظني مصطفي في الثانية ظهرا لقد اعد الإفطار، والقهوة سألني عن ديرا وعن ما فعلته ليلة أمس بعد أن خلد للنوم. جاوبت علي أسئلته بجملتي المعتادة (لا تقلق كل شيء علي ما يرام) سيحاسبني الله علي هذه الكذبة فانا لست بخير..

- ماذا ستفعل هذا المساء..

- لن أخرج من هنا.. سأكتفي بالقراءة..

- أنا مدعو لحفل غنائي لأحد الفرق الشعبية من غجر باريس.. ماذا عنك..؟

كنت في حاجة لتغير عاداتي اليومية. أحب الفرق المغمورة التي لا تهتم بالظهور، قدر اهتمامها بالاختلاف.. وافقت علي الحضور معه وذهبنا سويا للميدان. كانت الموسيقي تدق بشكل عشوائي، لكنه منظم ومبهج. جلسنا في الصفوف الأخيرة نستمتع بالألحان السريعة. فجأة صمت العازفون، ووقف أحدهم يرحب بحضور الممثلة لورين. كانت صفعة من المساء، سقطت لتمزقني وحدي كل ما أتذكره وقتها إنني فقدت النطق. نعم كنت اشتاق لرؤيتها لكن في الوقت نفسه في حاجة لصفعها ومعاتبتها علي غيابها أردت الوقوف أمامها ومعانقتها فشوقي لها كان أكثر مما أظن لكنه لم يتعد كبريائي حينما اجتاحتني

رغبة عارمة في سحقها بقدماي . صدفة لعينة أفسدت كل شيء ، طلبت الرحيل فورا وبالفعل تركنا الميدان .

القدر لم يكن رحيما بي هذا المساء . من قال أن الصدفة خيرا من اللقاء . لا لا . نعم كانت ثواني . لم تتعدَّ لمح البصر . رأيتها بفستانها الأبيض المُزين بالأزهار . لم أكن اعلم من قبل عشقها للون الأبيض . ربما ارتداؤها له تيمنا بحياة جديدة بعد رحيلها عني . ربما ثمة ثورات انتفضت بداخلي . عجزت عن مواصلة المشي . أصابني العجز والشلل . فقدت السيطرة علي كل شيء . نبضات قلبي لم تكن ابداً طبيعية كانت تدق دفوف السعادة والحزن معا دون رحمة . دون شفقة . أنفاسي تتصارع كالثيران . انهمرت دموعي رغما عني . انهمرت كفيضان أطاح بمدينة بأكملها . أزالت وشاح الكبرياء والقوة مني . أيحدث أن يمر احدهم أمامك صدفة فيمر الموت والحياة معه في آن واحد . وددت أن أقف أمامها لكنها لم تراني . أردت أن أعطي لها باقة من الورود . أن اخبرها كم اشتاق إليها . لكن كبريائي منعني حتي من التأمل في ملامحها . أي صدفة غبية هذه التي تجمع ابن بأمه ولم يجمعهم العناق . أي صدفة غبية هذه التي تحرم أبا من معانقة ابنته

الأولى والأخيرة.. في لمح البصر رأيت الموت والحياة ألف مرة..!

ونحن في الطريق للمتجر لم يتحدث مصطفي معي كان يعلم أن هناك حديثا بداخلي لابد من مواجهته، وصلنا في الحادية عشرة، جاءت القهوة كباقة اعتذار عما حدث لي من وجع جديد.. كنت بالداخل هش تماما، في أمس الحاجة للحديث.. نظرت إلي وأنا أتابع دخان التبغ المتطاير..

- من الآن انتهت لورين.. هذه الشخصية الكاذبة، لا أريد الحديث عنها.. علمت إنها علي علاقة برجل آخر وعلمت أنها تحدثت عني بسوء أمام الناس.. هذا لا يهم.. المهم إنني طويت هذه الصفحة للأبد.. كفاكم حديثا عنها فهي لا تعنيني أرجوك يا مصطفي ساعدني علي نسيان هذه الصفحة القذرة.. سأكون أفضل بدونها.. عليّ التركيز في حياتي العملية.. يجب نسيانها الآن.. يجب نسيانها!

ابتسم مصطفي وقال..

- كان الله في عونك..!

أشعلت سيجارة، وأخرجت ورقة وكتبت بخط عريض.. وداعا

أيتها الحمقاء . . !

دخلت في هدوء وتوتر كطفلة لم تستعد لليلة الامتحان . ربطت يداها علي خصرها إشارة منها للاستماع .

ـ وماذا بعد . . ؟

ـ تعنت الأهل أصابني بالاكتئاب، انفصلت عنه وانقطعت علاقتي به . أحبني وأحببته ولم تحبنا الحياة . مرّ العام الأول من غيابه مملا بين الوحدة والاكتئاب، ورغبتي المكبوتة . راودتني فكرة قتلهم، ولم استغفر عنها، فلقد استطاعوا أن يفسدوا حياتي بمهارة . بدأ العمر يمر وبدأت الحياة هي الأخرى تجري سريعا كلمات الأهل السخيفة عن الزواج كانت مدوية علي مشاعري . شعرت بثقل وأنا هنا بينهم، فوافقت علي الزواج عسي أن أجد الدفئ في حياة جديدة مع رجل آخر . لن أمانع فانا في حاجة لهذا التغير . .

صمت، ثم أشعلت سيجارتها بعنف . .

ـ أتذكر يوم أن جاء جوزيف إلى المنزل . سمعت صوته من الخارج فكنت في حاجة لشعوري بالدفء من نبرة صوته، لكن ما حدث

كان افزع مما أتخيل أنه جوزيف. جوزيف العدو اللدود لعشيقي فاران. لا لا أنه شيء لا يصدق، بالطبع أنه تشابه الأصوات ليس أكثر خرجت لأتأكد من ظنوني. نعم انه جوزيف اقرب الأصدقاء لفاران في السابق واشد أعدائه في الوقت الحالي رجل الأعمال الفاسد الذي سرق حلم فاران منذ خمسة أعوام، واستطاع الوصول لكل هذا المجد من مجهود فاران. الآن أكتملت اللعبة يريد شرائي بطريقة مشروعة ليزرع في حقله الفاسد وردة صالحة. يريدني الآن ليضع سهم آخر في قلب فاران. بين الحلم والعشق يمكن أن يقتل البشر، لكن فاران لا يستحق أن يقتل من الأساس. لم يؤذ أحدا من قبل كان مسالما، يحبه الجميع ويحترمه. كان مثالا يقتدى به. لماذا تصب الحياة اللعنات علي الطيبين؟

يريد سلب كل شيء من فاران حتى ذكرياته. أي انتقام هذا الذي يريده؟ ماذا فعل فاران له لينال كل هذا الكره منه. فلطالما كان صديقه الوفي في لحظة انكب عليه. بعدما تمكن من نقاط ضعفه ليلهو بها ويعبث بمشاعره دون رحمة.

ردت وكأنها تحادث نفسها.

" لماذا لا يموت أبناء العاهرات " كان مثالا للنسل القذر الدنيء كمرض الإيدز، دنيء ومقزز في كل شيء. جلست أمامه، وبصوت جاف هادئ حتى لا يسمعني سواه " يا لك من قذر" . . استقبل كلمتي بابتسامة سخرية. تغزل في ملابسي بذوق مصطنع أمام الحضور. بالطبع أعلنت أمام أهلي وأمامه أن هذا رجل غير مناسب لي، وذهبت لغرفتي كنت أريد إحراجه بأي طريقة. هكذا ظننت. . خفت أن يصل الخبر إلى فاران. حتما سيقتله. إنه في حالة لا بأس بها. كانت ضغوط أهلي قد وصلت لحميتها، فلقد وعد جوزيف بإتمام شراكة مع شركة أبي للاستثمار بمجرد أن يتم زفافنا. ضاقت بي الحياة أكثر فأكثر. فنحن من أسرة مسيحية متدينة، تلتزم بعادات وتقاليد غبية حتى في باريس. . استخدموا معي كل أساليب الضغط المشروعة والغير مشروعة، اتخذوا ضدي كل ما يمكنهم استخدامه دون رحمة. قطعوا عني كل سبل التواصل مع العالم الخارجي. كنت في حبس انفرادي خلال هذه الفترة. ممنوعة من الخروج: وممنوعة من الضحك، وممنوعة من الحديث، وممنوعة حتى من الحياة. كنت أعيش بين أربعة جدران استيقظ صباحا أتأمل شروق الشمس، ثم القراءة واللعب مع قطتي، ثم النوم وهكذا يمضي اليوم. . منعوني حتى من الذهاب للكنيسة.

كنت حقا في جحيم وما ادارك جحيم الأهل. كيف يتجرأون علي فعل هذا. لن أوافق مهما حدث، لن أعطي الفرصة لجوزيف لدس سم في وريد فاران. لا هذا لن يحدث أبدا، سيموت بمجرد سماع خبر زواجي. فماذا سيحدث له إن علم بزواجي من ألد أعدائه. بالطبع لن يمر الأمر بسلام. ساعدني يا يسوع ساعدني !

عادت إليّ بعد رحلة من ذكرياتها المؤلمة. طلبت منها الخروج فلقد حان وقت الراحة. خرجت في هدوء أحضرت ورقة وكتبت بخط عريض

"هناك عدة أسباب للكبت الأسري في المجتمعات المتشددة يتحول الزواج إلى عقد بيع وشراء. الأمر أشبه بسوق الجواري قديما. يأتي المشتري ليشاهد بضاعته، ويعرض علي المالك ما يلزمه من مادة، وينتهي الأمر.. !

عادت من جديد ثم واصلت..

استيقظت صباحا لم الحق شروق الشمس كعادتي. كانت الشمس غائمة وحبات الثلج علي نافذتي. اعتدلت في جلستي هناك شيء غريب حدث.. كل شيء في الغرفة منظم ومرتب، لكن شيء ما يقلقني.. بولفار؟ أين قطتي بولفار؟ ظننت أنه خارج من الغرفة. خرجت أبحث عنه. كان أبي يشرب الشاي، ويقرأ الجريدة اليومية.. سألته هل رأي بولفار هز رأسه يمينا ويسارا، فذهبت لأمي اسألها عنه، لكنها لم تجب: وأدارت وجهها عني.. ذهبت من جديد للغرفة أحاول البحث عنه..

بدأت ملامحها تنطفئ شيئا فشيئا.. انغمرت دموعها فأفسدت خط الكحل علي عيناها. اقتربت مني للمرة الأولى في هذه الجلسة وواصلت..

ظللت ابحث عنه أسفل، فكعادته ينام بين ملابسي لم أجده.. فجأة رأيته..

اقتربت أكثر مني ثم ضحكت ضحكة عالية وهمست في أذني..

"قتلوه" لقد قتلوا القط يا عمر.. رأيته تحت السرير وبجواره الأكل.. لم أصدق ما شاهدته.. ناديت عليه، استيقظ يا بولفار

استيقظ يا غبي. انهض افتقدك يا شقي. لم يجيب هذه المرة كانت رأسه مائلة واللعاب يسقط منه.. قتلوه. قتلوه، وضعوا السم في طعامه. الأوغاد أبناء العاهرة فعلوها أي دين هذا الذي أحل قتل حيوان ضعيف. أي خبث وجرم هذا. يلعن البشر. يلعن البشر.

قالتها ثم انفجرت في البكاء كطفلة فقدت والديها. كانت تبكي بطريقة اضطرتني لمعانقتها. عانقتها بقوة. فما أصعب ضعف مدعي القوة. ما أقسى نظراتهم، وما أضعف بكائهم. لاحظت إنني أعانقها هذه الفترة فبكت أكثر، كانت لحظة أليمة لم انسها، لكن حدث ما توقعته منها. أتجهت للحمام بسرعة، وهي تحاول تمالك بكائها. لم أمانع، تركتها تذهب فمثل هذه الشخصيات يرفضون الشعور بالشفقة من احد..

أكملت الكتابة علي ورقة فريدة..

"وسائل الضغط التي يستخدمها الأهل حيال أبنائهم دائما ما تصيبهم بالاهتزازات النفسية. المشكلة أن الهدف وراء الضغط قد يكون شريفا، لكن سبل الوصول إليه ليست كذلك، وهنا تكمن

الفجوة، فحتى إن نفذ الأبناء ما يطلب منهم. تبقي هناك آثار نفسية جسيمة لا يهتموا بها، وفي اغلب الأحيان، وبعد اكتشاف الأمر يتحمل الأهل أثارها أيضا، لكن بعد أن يفوت قطار الإصلاح. هذا ما يحدث لكن مع فرويدة الأمر مختلف..»

عادت إليّ أكثر فتنة وجمالا. رسمت خطا جذابا من الكحل حول عينيها وأحمر الشفاه.. نظرت إليّ ثم قالت..

- هل أنت مستعد..؟

شعرت في نظراتها شيئاً من المداعبة.. أجبت.

- ماذا حدث بعد وفاة بولفار..؟

اقتربت مني بغرور وبدأت في فك قميصي..

- تزوجت جوزيف

تركتها تخلع قميصي وهي تحكي..

- فاض الكيل بي، لكن واقعيا لن أتزوج فاران مهما حدث.. وأبي يرى أن جوزيف رجل لا مثيل له. لبق وغني وناجح. مواصفات

رائعة للزوج المثالي، وافقت أخيرا برغبتي أو دون ذلك لا يهم، فالنهاية واحدة.

خلعت هي الأخرى قميصها ونامت علي صدري وهي عارية تماما وواصلت . .

- ليلة زواجي كانت القاعة علي أخرها بالناس. لم يصل الخبر لفاران. هذا ما استوحيته خلال شهر من موافقتي. حتى ذلك اليوم. لم يحاول الاتصال بي أو الوصول إليه، لم أتحدث مع جوزيف خلال هذه الفترة فقط أخبرت أبي بالموافقة، لكن علي شرط الزواج فقط. فلا داعي لفترة التعارف، كنت أريد الخلاص من هذا السجن بأي طريقة

نظرت إليّ وهي تداعب انفي بأناملها

- تعجبني قوة تحملك لإغرائي. . ثم استكملت . .

كنت ارتدي فستانا أبيض طويل يغطي جسدي بالكامل، وكان هو يرتدي بدلة سوداء ينتظرني علي السلمة الأخيرة. كنت اقترب منه

خطوة تلو الاخري أريد وضع خنجر في قلبه عسي أن يشعر بما يشعر به فاران. . قبّل يداي بطريقة مصطنعة، ثم همس في أذني (أنت الآن ملك لي. . اكتملت اللعبة وداعا يا فاران). . كنت أريد ركله بقدماي بعد هذه الجملة الرخيصة، وهذا لم يحدث. . كانت القاعة تعج بالأوغاد والمنافقين الذين جاءوا لمشاهدة زوجة رجل الأعمال المعروف جوزيف. فجأة اقترب من بعيد فاران. كان يرتدي بدلة رمادية. . هذا اللون الغبي الذي جئت لك به في المرة الأولى. نظرت لجوزيف فرأيته مبتسما لقدومه. اقترب ثم نظر إليّ أولا بابتسامة غامضة يالله. شعرت كأنني أقتله بدم بارد. أضعه في قبر وهو حي. ابتسامته كانت موجعة جدا. صافح جوزيف ثم هنأه. كانا يتبادلا الرصاص بكلماتهما.

- زواج سعيد يا جوزيف. .

- أنت بخيل يا فاران. . هنأني علي مشاريعي العمرانية وشركات الإنتاج واتفاقيات التعاون المشترك بيني وبين شركات الغاز في تركيا أولا. . ثم هنأني علي الزواج هذه أقل المكاسب يا رجل.

تدخلت في الحديث بينهم. .

- أنت رخيص يا جوزيف

لم يهتم الاثنان بكلماتي، فجوزيف كان يعلم كرهي له، وفاران لم تشفع له كلماتي . . رد فاران . .

- علي أي حال أنت رائع في اقتناص الأحلام . .

ابتسم جوزيف ولم يرد

- نظر إليّ فاران ثم قال وداعا يا فرويدة ورحل!!

اعتدلت فرويدة في جلساتها ثم ارتدت ملابسها وقالت غدا سيكون اللقاء الأخير بك بعدها لن تراني مجددا . .هل بأمكاني المجيء مبكرا عن الثامنة . سألتها عن المعاد المناسب لها فقالت في الرابع ظهرا، وافقت علي طلبها شكرتني ورحلت .

اتصلت بالمسئولة عن مواعيد المكتب وأخبرتها بتأجيل أي زيارة غدا إلى بعد غد . فكنت في حاجة للتفكير أكثر في أمر فرويدة . وأنا في الطريق للمنزل اتصل بي أمير من المغرب، لم استجب لاتصاله، كنت في حاجة للهدوء أكثر . أشعلت سيجارتي، واستمعت لمجموعة مختارة من أغاني أم كلثوم . عشقي لها لم يتغير حتى بعد انتقالي للحياة في باريس تبقي أم كلثوم فريدة لا تتغير مهما تغيرت الحياة . . !

التفكير في أمر فرويدة أصبح أكثر غموضا.. كلما تعمقت في شخصيتها تعطيني إحساس إنني لازلت في البداية.. زواجها من جوزيف كان كسرة لها، لكن قتل بولفار كان أكثر عنفا علي نفسيتها. مجموعة حلقات مفقودة في شخصيتها.. أنا علي يقين أن هناك شيئا آخر حدث تسبب في اكتمال هذه الشخصية. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فأخذت جرعة من حبات المنوم ونمت منتظرا شمس الغد بفارغ الصبر..!

كانت الجلسة الأخيرة. هذه المرة ارتدت معطفا أسود طويل يغطي كل مفاتن جسمها، ووشاح عريض قرمزي اللون. وبصحبتها حقيبة كبيرة تبدو أنها علي مشارف سفر..

- هل تستعدين للسفر..؟

- نعم

- إلى أين..؟

- تركيا.. برفقة جوزيف

- سفر سعيد يا فرويدة

ابتسمت ثم قالت..

- تزوجت جوزيف، وبعد موقف فاران طلبت من جوزيف الاتجاه للمنزل مباشرة فلست في حاجة لمقابلة أحد، أو استقبال مزيد من التهاني السخيفة. وافق وداعبني بكلماته الوقحة.. دخلت المنزل كان من المفترض أن أكون مع فاران في منزلنا لكنها الحياة. دون مقدمات ما أن دخل المنزل حتي خلع ملابسه وانقض عليا بشهوة حيوانية رخيصة. قاومت محاولاته، لكن جسده كان اقوي مني فامتلكني ساعتها، كان يقبل كل أطراف جسدي وكنت أبصق عليه فيثور أكثر. كان ينهك جسدي دون رحمة كأنه يريد قتل فاران حتى في معاشرته لي.. تألمت تألمت جدا من معاشرته. كنت أرى نفسي عاهرة لا تختلف عن فتيات الليل. قلبي يتألم وجعا مما سيحدث لفاران، وجسدي يفقد إحساس المتعة. كان جوزيف رخيصا ووغدا حتى في معاشرته لي. أتذكر كلماته بعد أن انتهى مني. قال بوقاحة وهو يرتدي ملابسه: الآن علمت لماذا كان يقاتل فاران لأجلك.. أنت فاتنة تستحقين حقا كل هذه الحرب'..

صمتت فريدة للحظات.. صراحة أفزعني ما سمعت منها؛ لهذا الحد جوزيف قذر.. أخرجت من شنطتها زجاجة من الفودكا،

ثم سألتني هل أمانع، فقدمت لها الكأس حتى تواصل الحديث.

- بعد ما قاله جوزيف فكرت جديا في الانتحار، ليلتها استعجب من صمتي وعدم الرد علي كلماته، لكنه لم يهتم فيما بعد، ونام بجواري كأنه لم يفعل شيئا بكرامتي. لم يتوقف الأمر عند التفكير في الانتحار. ظللت مستيقظة حتي رحل جوزيف في نوم عميق، وخرجت من الغرفة علي أطراف قدماي.

وجدت امامي حبوبا مهدئة في درج الثلاجة. كانت لحظة فارقة في حياتي. إذن هو الموت لا محالة. أخذت جرعات أكثر من المطلوب ليعجل الموت، وانتهي من هذا الجحيم، لكن علمت أن المحاولة فشلت بمجرد استيقاظي، في المستشفي بكيت حزنا علي فشلي. وجدت الممرضة أمامي، سألتها ماذا حدث، فروت لي الأحداث. إنني جئت إلى هنا بصحبة زوجي جوزيف من يومين في الخامسة فجرا. كنت في حالة إغماء تام. اكتشفنا تناولك لمهدئات زيادة عن المطلوب، فأنقذنا الوضع سريعا، بعدها جاء والداك لزيارتك، ورحل السيد جوزيف. قطع حديثها جوزيف عندما دخل الغرفة، فخرجت الممرضة، ودار بيننا حديث قاس، أو ربما عقد اتفاق

شفوي. فقال بصوته الخشن..

- تريدين الموت..؟

- جوزيف..أنا أكرهك

ابتسمت. ثم قال

- أعلم ولكن ما فائدة كرهك لقد أصبحت ملكا لي

صحت في وجهه..

- إذن لما تزوجتني..

- ولماذا باعك أهلك لي..؟

- أوغاد مثلك لا يختلفون عنك أبدا

أشعل سيجارة واقترب من أنفاسي ثم قال:

- اسمعي لقد انتهي الأمر..أول أمس وجدوا فاران غارقا في النهر..هذا ما أردته فقط أن ينتهي فاران أي كانت الطرق..أنا أيضا أكرهك. من الآن أنت حرة. فقط علينا أن نحافظ علي علاقتنا أمام الناس، لكن غير هذا أفعلي ما شئت، وأنا سأفعل ما يحلو لي، سأمارس الجنس مع غيرك، ولن اكف عن أي شيء،

وأنت لك حرية التصرف. لكن إياك أن يعلم أحد بهذا الاتفاق. وألا سأقتلك لكن بالحياة. تعلمين جيدا ما أقصد. بالمناسبة صورت لك جثة فاران إن أردت رؤيتها فستجدينها أسفل السرير. اتفقنا..؟

اعترتني صدمة مما سمعته من خبر انتحار فاران. وافقت علي الفور علي العرض وأعطاني صورة فاران المنتحر ثم خرج.

أخذت الصورة وحدثتها كنت أنادي عليه.

فاران لا لا لن تتركني هنا.. جوزيف يكذب أنت لم تمت.. هذه كذبة جديدة منه. أنا آسفة آسفة يا حبيبي لم اقصد قتلك. أقسم لك لم اقصد. كنت أحاول النجاة بي، ولم يكن هناك طريق آخر..!

ابتسمت فريدة ونظرت إليّ ثم قالت..

ومن بعدها بدأت حياة جديدة بدماء فاران. تأقلمت مع الوضع بعدها أنا زوجة جوزيف رجل الأعمال الفاسد. وابنة لأسرة لعينة باعت أبنتهم. وانتحر فاران. أصبحت علاقتي بجوزيف علاقة انتقام متبادل. هو ينام كل ليلة مع عاهرة جديدة، وأنا عملت سرا في واحدة

من الملاهي الليلية الفقيرة. نجتمع فقط في المناسبات الرسمية، والحفلات العملية مثل ما سيحدث غدا، وما أن تنتهي؛ حتى يذهب كل منا لعالمه. كل شيء تغير عدا عشقي لفاران، حتى وإن كان فقط في مخيلتي.

ترى يا عزيزي أنا الآن عاهرة أم سيدة شريفة..؟

ابتسمت بعد أن أنهت حديثها. أخذت شنطتها، ورحلت بعد معانقة صامتة دامت لدقائق. أحضرت الورقة الأخيرة وكتبت..

(فريدة مذنبة حيال نفسها. فبمجرد الموافقة علي عرض جوزيف، انحرفت عن المسار الأخلاقي المتعارف عليه، لكن يبقي الذنب الأكبر لأبويها حين جردوا إنسانيتها ووافقوا علي الزواج من جوزيف هذا لا يبرر أفعالها فيما بعد، لكن هي نفس بشرية. لها طاقة وقوة تحمل، والكبت قد يولد ثورة من الأفعال الغير متوقعة. المشكلة دوما تحوم حول رد الفعل. لم يوجه أحد أصابع الاتهام لأهلها لكنهم صنفوها بالعاهرة ونسوا أن أفعالهم مهدت الطريق لذلك. في الختام الزواج علاقة حميمة بين طرفين إن صلحت

العلاقة، صلح جيل كامل.. وان لم تكن صالحة، أفسدته. اتركوا لأبنائكم حق اختيار الشريك، حتى إن لم يكن صالحا، فقدموا لها وجهات نظر مقنعة، وإن لم توافق، فاتركوها، ففي النهاية ستتحمل وحدها سوء اختيارها)

انتهى أمر فرويدة.. وداعا يا مغرورة..!

الفصل الثالث..

أيها الأموات عودوا فأن الأحياء علي الأرض قد ماتوا

الشاعر / محمود درويش

ـ عمر أريد رؤيتك. . ؟

كان صوتها مميزا. . أنها لورين

ـ لماذا. . ؟

صمتت للحظات ثم قالت. .

ـ أمر هام. . سأنتظرك غدا في العاشرة صباحا عند العم ماركو. . !

وأغلقت الهاتف. . لازلت أتذكر مكالمتها بعد أن خرجت فرويدة مباشرة. . كنت أتشوق لصوتها وللمرة الأولى استجبت لاتصال رقم غريب. ربما كنت أشعر أن القدر سيعطي لي فرصة جديدة للحديث معها. أعطتني السكرتيرة معلومات عن الزائر القادم في الغد. رائع أنه شاب عربي يدعي سامر من تونس في الخامس والعشرين من العمر. . مكتوب أيضا عن عدوانيته تجاه كل شيء، وأن هناك حدثا غامضا تسبب له في هذه العدوانية. كان اجتماعيا لوقت قريب، لكن

فجأة انعزل عن الناس. فقط هذا كل شيء عنه. أخذت معي تسجيلات فريدة الورقية، ومعلومات سامر، وأمر لورين يعود من جديد؛ ليأخذ مساحة ليست بالهينة في عقلي. اتجهت للمنزل، فكنت أحتاج لهدوء حتي وإن كان مكتسبا. أغلقت الهاتف، وأعددت القهوة، وكعادتي شغلت الجرامفون علي صوت أم كلثوم. (ياما كنت أتمنى أقابلك بابتسامة.. أو بنظرة حب أو كلمة ملامة) ستبدأ الليلة إذن بلورين. تري لماذا تريد رؤيتي؟ كل باب للعودة إليها موصد، حتي وإن أردت هذا، فعقلي الآن يرفض وجودها مهما كانت مشاعري ما تزال تحن إليها. لقد حسمت الصراع وانتهي الأمر. قطعت أم كلثوم حبل أفكاري حينما تنهدت ثم غنت (وعايزنا نرجع زي زمان.. قول للزمان ارجع يا زمان وهاتلي قلب لا داب ولا حب، ولا انجرح ولا شاف حرمان).

المثير أن كلمات أم كلثوم كانت قاسية في هذه الليلة، كأنها تريد إخباري بالنهاية رغما عني. هربت من التفكير في مقابلة الغد بمواقع التواصل الاجتماعي. رسالة جديدة من ديرا.

- عزيزي عمر اسمح لي أن أضع قبل اسمك هذه الكلمة الطيبة لك
طاب مساؤك لقد سمعت أن حالتك النفسية في تحسن. هذا أمر رائع. اعذرني عن تقصيري في إرسال باقات الورد. ثمة أمور تعيق التواصل معك بشكل دائم، لكن أقسم لك لم تغب عن خاطري للحظة. قرأت كتابك أنت حقا رائع في كل شيء. بالمناسبة حيتك فاتنة. إلى اللقاء..!

قرأت رسالتها فضحكت ببهجة. هل كنت في حاجة لتغازلني. لم أرد علي رسالتها، لكن وبعيدا عن الكتب أعجبني وقوفها الدائم بجانبي. فجأة رن جرس الباب كان الوقت متأخرا، وليس من عادة مصطفي أن يأتي قبل أن يخبرني بقدومه. فتحت الباب فوجدت السيدة تريزا أمامي. هذه المرة كانت أكثر جمالا. البياض الساطع من وجهها أذهلني. عاتبتها علي غيابها المفاجئ فابتسمت، وقالت بصوت دافئ: إنها مشاغل الحياة يا بني. طلبت مني إحضار القهوة. هذه المرة استعجبت من تصرفاتها، فقدومها في هذا الوقت المتأخر أثار تساؤلاتي. جلست علي المكتب، وذهبت أنا أعد قهوتها وأنا اقلب القهوة ربتت علي كتفي ثم قالت..

- بالطبع تسأل عن سبب زيارتي المفاجئة. هناك عدة أمور أريد إيضاحها لك. الحياة سريعة جدا. لا تنتظر أحدا. لكن لعدالة السماء رأي آخر، فقد أعطت لنا كل الوقت لاختيار ما يناسب عقولنا وعاطفتنا. تمهل في اختيارك لمن حولك، فعقوبة اختيارك المتسرع لن يتحملها غيرك. انظر للقهوة يا غبي..!

قالت بحزم هذه الجملة.. ثم واصلت..

- هذا ما سيحدث لك بمجرد اتخاذك لطريقين معا مثلما فعلت الآن انتبهت لحديثي، ولم تبالِ بالقهوة، فلم تستطع إعطاء التركيز الكامل لكلماتي، ولم تنتظرك القهوة.. في المرة التي تتخذ طريق واحد للنهوض ستجد بعض الأصوات تحاول تحطيمك، أو تشتيت ذهنك لا تبالي بهم. فقط خذ الطريق المناسب لك ولعقلك وإياك أن يحطمك الآخرين..!

خرجت من المطبخ فخرجت خلفها وأنا احمل القهوة.. أشعلت سيجارتها، ثم نظرت للفنجان بسخرية وقالت..

- ممتاز رائع ما صنعت. لكن الوقت متأخر جدا لاحتساء البن إلى اللقاء. خرجت وأنا في حالة ذهول مما تفعل ماذا تريد إخباري

بالضبط. جلست لدقائق في حالة صدمة حقيقة. ثم عدت لشرودي ودخلت المكتب أحضرُ لجلسة الغد. وما أن فتحت المذكرة حتي وجدت ورقة بداخلها مكتوبة بخط اليد..

(أبني عمر.. ما حدث في الموقف الأخير كان متعمدا. ليس من أخلاقك أن ترفض قدوم أحد لك.. اعلم تماما إنني قريبة منك حد عدم قدرتك علي رفض أي طلب مني، لكن هذا لا يصح. في البداية جئت متأخرا في وقت غير مناسب للزيارات. توقعت أن لا تمانع، وهذا ما حدث، كان من المفترض أن تسأل عن سبب الزيارة، لكنك لم تفعل. ثم اقتحمت خصوصيتك، واتجهت للمكتب وهذا لا يصح، لكنك لم تمانع. للخصوصية حُرمة يا عمر. فجأة وجدتني خلفك اشرح لك نظرية مفترق الطرق المعروفة. لم أجد اهتماما بكلماتي فلقد كنت منشغلا بسبب زيارتي. في الوقت نفسه لم تنتبه لدلدقة القهوة، فكدت أن تفسدها، ثم خرجت خلفي، ولا زالت تتساءل عن قدومي. فرحلت عنك، رغم ما قدمته لي وتُركت في بحر من الأسئلة. أبني عمر.. القلوب لها حرمة. من البداية لا تسمح لأحد بالدخول لعالمك دون موافقتك، فالبعض لا يستحق هذا.

تفاصيلك ملك لك وحدك لا تقدمها ألا لمن يستحق . انتبه جيدا فيما تفعل، فطرق النجاح يملئها الضباب . لا تخبئ تساؤلاتك عن احد إن كان الأمر يخصك. وبالمناسبة قد تقدم كل شيء، وأنت في خاطرك تتساءل لماذا عليك أن تقدم كل هذا فيرفضه ويقلل من قيمته . في النهاية الذنب لك وحدك، فأنت الذي صممت علي كل هذا من البداية . ولم تسأله عن سبب وجوده هنا . طاب مساؤك . ألام تريزا)

قرأت الرسالة عدة مرات وبعدها جلست أفكر فيما تقصده العجوز . للمرة الأولى شعرت بصعوبة كلماتها وعمقها، فمهما ازدهرت علما، يبقي من هو اعلم منك . أخذت حبة من المنوم هروبا من ضجيج آخر أشعلته العجوز في ذاكرتي . استيقظت في الثامنة والنصف صباحا هذمت ملابسي وزينت لحيتي للمرة الأولى بعد غياب لورين ارتديت بدلة رمادية لأخفي انطباعي عن المقابلة . هذا ما تعلمته من فرويدة . فتحت الباب فوجدت باقة من الورد بإمضاء ديرا مع رقم هاتفها . علي الفور اتصلت بها .

ـ صباح الخير . .

صمتت لثواني ثم أجابت . .

ـ هل تعرف . .

قطعت حديثها بكلماتي . .

ـ شكراً لك يا ديرا . .

صمتت مرة أخرى لكن هذه المرة أطول ثم أغلقت الهاتف . . !

رن الهاتف من جديد . .

ـ أنا في الطريق للمتجر

ـ وأنا كذلك

قالت بمزحة

ـ أرجو أن لا تتأخر كعادتك

رديت بحزم لا اعرف سببه وقتها

ـ أنا في الطريق . . إلى اللقاء

صمتت كأنها استشعرت الحرج . وانتهت المكالمة . . !

ذهبت هناك كان المكان مزدحم استقبلني الجرسون وقال أن هناك

طاولة محجوزة باسم الآنسة لورين. فرحت أجلس عليها. طلبت القهوة وأشعلت سيجارتي منتظرا قدومها..

- رأيتها من بعيد قادمة. تغيرت كثيرا عن الماضي. استعجبت إنني لم ألاحظ هذا التغير المفاجئ حين جمعتنا الصدفة. كانت ترتدي ثوبا ورديا قصيرا إشارة منها للحياة والحرية بعد رحيلها عني.. جلست أمامي ثم قالت..

- كيف حالك يا عمر..؟

صراحة حزني منها كان اقوي من شوقي لها، فلم استطع أن انظر إليها وهي تحدثني..

- أنا بخير.. ما الأمر..؟

نظرت لي، وهي تحاول تجميع نظراتي عليها..

- لازلت طفلا. لا تعرف كيف تخبئ حزنك وضيقك من أي شخص..!

شعرت بإهانة من وصفها. ليس لأنني اكره الأطفال لكن الإهانة من لكنتها المتعجرفة. لم أرد عليها فواصلت..

- كل طرق عودتنا مرفوضة. . فنحن لن نجتمع ثانية يا عمر. انس فهناك أشياء بيننا اختلفت، لقد قدم لي القدر الحرية في غيابك. . وقدم لك النجاح وهذه صفقة مربحة جدا لك ولي. ولا أحد منا سيوافق علي التنازل عن أي منهما. رغم يقيني أنك علي استعداد للتخلي عن كل شيء لأجلي، لكن أنا لن افعل هذا، وحريتي ونجاحك لن يتفقان. فأنا وليدة عشقك المريض الأناني وأنت وليد قسوة غيابي المفاجئ. بالطبع تسأل عن سبب كل هذا من البداية، وهذا سيخبرك به القدر لاحقا، لكن دعنا نتفق علي شيء. . حتي لا يصل بنا الأمر للعداوة والكراهية.

كلماتها كانت تضرب قلبي في مقتل. . لعنة الصمت تصيبني من جديد فواصلت. .

- ستعود علاقتنا لنقطة الصفر. . سنتبادل الرسائل الالكترونية ونلتقي كل فترة عند العم ماركو، لكن لن يجمعنا الحب. ستعود علاقتنا سطحية هذا مناسب لك أكثر. . !

رن في أذني كلمات السيدة تريزا بالأمس. . اعتدلت في جلستي

كنت انوي الرفض مباشرة، لكن لأنني اعتدت علي كشف ما تكفي الكلمات وافقت علي عرضها؛ حتي تستكمل حديثها، وما تخفي في جعبتها . كانت لورين ذكية وتعرف كيف تلعب بالكلمات معي، وهذا ما أتقنته في حوارها الأول . صمتي وقتها لم يكن سوى إعداد نفسي للفتك بها مثلما فعلت هي، وحطمتني مسبقا . .

ـ أخبريني كيف صارت الحياة معك بعدي . . ؟

تنهدت كأنها شعرت بالنصر في معركة نفسية بين امرأة تجيد فنون القسوة، وثوري يرفض الحرب . طلبت من الجرسون زجاجة من النبيذ، ثم نظرت نحوي بدهاء . هي تعلم إنني أرفض شربها للكحول لأسباب علمية وصحية . فجسد لورين يرفض المواد المخدرة . نظرتها كانت البداية الأولى لجولة جديدة في حوارنا النفسي أيهما اقوي ابتسامتها وحريتها أم صمتي ونجاحي . سمعت منها كل ما حدث بعدي . خلال نصف ساعة كانت تروي لي قصة وردية عن انجازتها وبجدها بين الحين والآخر تتابع نظرات عيناي لترى أثر كلماتها علي جسدي، ثم تواصل قصتها مع الحرية والحياة . عدة أسئلة تحلق في ذهني كفيلة بإفساد حديثها عن الحياة . عاد الصراع بين قلبي وعقلي . الأول يرفض الرد والآخر يناديني بالانتقام . كان صوتا .

فاتخذت الصبر واقيا لرصاص كلماتها الطائشة. . مسكت هاتفها ثم سألتني. .

ـ ما رأيك في صورتنا. . ؟

تمعنت جيدا في الصورة. . أنها برفقة المخرج باولو. بدأ أنين قلبي يعزف سيمفونية جديدة من الحزن. ابتسمت للصورة، ثم واصلت ضرب الكلمات. .

ـ هذا باولو. حبيبي باولو. أرتبطنا منذ شهر. كم هو رائع.
واصلت أسطوانة المدح في شخصه وهي تتابع نظراتي من جديد.
انتهى الصراع. رفعت راية الانتقام تلبية لنداء عقلي أشعلت سيجارة جديدة، ونظرت إليها للمرة الأولى. .

لورين. كل شيء تغير الآن الحياة لا تنتظر أحدا، ولا شيء باق علي وضعيته السابقة. في البداية كنت معجب بك لا لا، بل أكثر. كان هناك شيء نحوك لا يوصف، وغير مبرر علي الإطلاق. أتذكر تهتهتي حين رأيتك للمرة الأولى. وتحدثنا. أذهلتني براءتك وتلقائيتك. كنت أقف أمام كطفل في حضور امه أو أب عجوز في

حضور أبنته. أي شيء يمكن تشبيهك بي ألا العاشق. . كلماتك العفوية أثارت غرائز أبويتي، ويا لعشق الأب لابنته. . تلاعبت بنا الحياة وشاء القدر أن اعترف بعشقي لك كمتهم يعترف بنصف جريمة لا أكثر، فانا أحببتك بصدق، لكن أحببتك كابنة أكثر مما تتخيلي. وافترقنا كما يحدث في معظم روايات العشق. . ولكن أنا اختلف عنهم، فلم نسمع مطلقاعن أب فارق ابنته ألا بالموت. إذن كتب التاريخ صفحة مشوهة كاذبة فانا لم أكن عاشق من البداية، لكن اتخذتك ابنة وصديقة وحبيبة، لكنه سطر فقط فراق عاشقين ولم يهتم بالابنة ومصيرها. ليعلن القدر ظلمه عليّا، ويقرر إعطائك راية القيادة في أمر الابنة. .

كانت تصرفاتك جنونية جامحة كثور هائج في حلبة مصارعة. تزرعين سهما هنا وخنجرا هناك. لم نسمع عن قضية عقوق فتاة لوالديها، ولأنك تختلفين في كل شيء، بادرتي بتسجيل اسمك. ولكن أي أب هذا من يرى العهر في أبنته، ويتركها تتنفس مرّة أخرى. .سمعت ارتباطك بپابلو. هذا حق مفروض لك، لكن يا عزيزتي هل من المنطقي أن ترتدي فستانا ورديا، ولا يزال التراب رطب علي جثمان أبيك. .لم أتحمل بطشك وعهر قلبك الذي ظهر

سريعا بعد غيابك. كنت تجيدين التمثيل في كل شيء حتي ابتسامتك وبراءتك مصطنعة زائفة، لا حقيقة فيها، ولأنني رجل اعرف جيدا ما هو العار. قتلت أبنتي بين كتاباتي لأغسل عاري، أو يا ربما أحافظ عليها من عارك. .عار ابنتي لورين من العاشقة لورين. .

صعقت لورين من قذائفي الغير متوقعة. لكنها لم ترد. فقط كانت تنظر في صمت تام.

- الآن تقدمين عرضا مغريا. تعلمين في الفترة الأولى من غيابك. كنت اشتاق حتي لرؤية التراب الذي تطئيه بقدميك. كنت أمرُ أمام منزلك كل يوم سرا، عسي أن أرى طيفك أمامي. كعاصٍ يحاول التسلل؛ ليمتع قلبه بوهج الجنة وجمالها؛ حتي بعد أن جاء المرض نتيجة غيابك. لم أكف عن محاولات الوصول إليك، كنت أكذب من شدة صدق مشاعري لك. ولكن الذي قال أن القلوب التي عشقت بصدق لا يغزوا قلوبهم الكره، لا يعرفون شيئا عن فجيعة الفقدان المفاجيء. اختصرت أم كلثوم ما حدث معي بعد سلسة من الهزائم، والحسرات، وضربات قسوتك السامة حين

قالت . . (ياما . . ياما كنت أتمني أقابلك بابتسامة أو بنظرة حب أو كلمة ملامة . . بس أنا نسيت الابتسام . زي ما نسيتك الآلام، والزمن بينسي حزن وفرح ياما . إن كان علي الحب القديم . وإن كان علي الجرح الأليم . . ستاير النسيان . نزلت بقالها زمان . وإن كان علي الحب القديم وقساه . أنا نسيته . . ياريت كمان تنساه) . .

صمتت لورين مذهولة من كلماتي وربطها مع كلمات أم كلثوم . .

لورين ما تطلبينه لا يناسبني، فأنا رجل لا أهوى العاهرات، وقلبك مملكة له وهنا الفرق . . أتمني أن لا أراك مجددا . ماتت أبنتي . أنت فقط تشبهينها في الملامح، لكن أبنتي اشرف بكثير من قوم من فصيلتك . يا آنسة . . !

الفاجعة التي أصابت ملامحها من كلماتي كانت بمثابة النصر لي . نعم ضربة مميتة في قلب أصابه العهر . . ابتسمت من جديد وقالت . .

ـ حسبتك لن تتغير

ـ حسبتك صادقة الظنون خائنة يا آنسة

ـ ثم. . ؟

ـ محاولات استفزازك للانتقام منك أو رد اعتباري لن تصلح . فانا راجل أؤمن أن عقاب القدر اشد عنفا. كفاك حماقة . . !

ـ قرار نهائي؟

أشعلت سيجارة ورمقتها النظر الأخيرة، ثم رحلت كجواب مني علي سؤالها. لم انتقم من لورين، لكن تركت للقدر حق الانتقام. بعدها اتجهت للمكتب، وكأن شيئا لم يحدث. مرَّ الوقت منتظرا قدوم سامر. عقرب يلاحق الآخر، لكن لن يتفقان، ففي كل مرة يحاولان الوقوف يتغير شيء. .

ـ كان تنقص هذه الغرفة. لوحة للجميلة ديانا . .

اضطربت منه . لقد دخل الغرفة في هدوء لم اشعر به. كان شابا في ربيع العشرينيات من العمر، ملامحه العربية تسيطر علي وجهه، له لحية كثيفة، وشعيرات بيضاء واضحة علي شعره. يرتدي قميصا أسود ورابطة عنق حمراء، مع بنطال أسود، وعطر مميز من أشهر العطور الباريسية. وضع قدمه اليمني علي اليسرى ثم سألني . .

ـ هل عندك رأي آخر . . ؟

ـ الغرفة مناسبة . . لا أحب أن اعلق صور الأموات . . !

ـ ولماذا لم تعلق صورتك في المكتب . . هل أنت منهم . . ؟

استفزتني أسئلته فرددت بحزم

ـ أنا هنا لأسألك . .

ـ لا لا يا دكتور . . نحن هنا لنسأل صدقني هذه الحقيقة التي تخفيها أنت

شيء مريب في طريقة نطقه للكلمات . . يتحدث بهدوء مبالغ فيه

ـ لماذا انعزلت عن الناس . . ؟

ـ هم من عزلوني عنهم . . رفضوا وجودي بينهم فحكموا عليا بالعزلة . لقد سمعتك تقول أن العزلة خير من مرافقة الأغبياء . أنت سطحي جدا يا دكتور . . العزلة خير من مرافقة الأغبياء ، والأوغاد والحمقى ، والمتطفلين والخونة . . في قانون الغابة إما أن تصبح فردا منهم ، وألا تلتك الحيوانات المفترسة . . أنا من المنبوذين في الغابة يا دكتور .

ـ الناس لا تعزل أحدا . قرأت في تقريرك انك فجأة قطعت علاقاتك

بأصدقائك وأقاربك وزوجتك. واخترت الحياة في مكان غير معلوم. إذن قرار عزلتك باختيارك. .ثم كيف عرفتني وأنت في عزلة عن العالم الخارجي ؟

ـ أكاد اشك في ذكائك يا دكتور. .هل هناك فرق بين اختيارك للعزلة واختيارهم لك بالعزلة. في النهاية النتيجة واحدة. .العزلة. . !

واصل وهو يضحك. .

ـ إياك تظن أن العلاقات تملئ الفراغات التي تسكن بداخلك. هذا هراء. في المقابر لا يوجد أي علاقة حية، ومع ذلك قد تجد أمنك وذاتك هناك. الناس لا يملئون الفراغات، هم فقط يجيدون التسلق علي أكتاف الآخرين. هذا ما وصفه بالتمام الأديب الإيطالي كازانوفا.

أعجبني استحضاره لفلسفة الأديب الإيطالي. . اصطنعت الغباء ليواصل أفكاره وفلسفته وقلت. .

ـ لكن كازانوفا معروف عنه الكذب والخداع والعربدة. . ؟

واصل

ـ هذا صحيح، لكن المضحك أن الجميع اتهم كازانوفا بهذه الصفات القذرة، ونسوا أن المجتمع الإيطالي وقتها كان قلعة للفساد والانحلال.

ـ علي الرحيل الآن

ـ لم تنتهي الجلسة بعد يا سامر

ـ أنا الذي أقرر الوقت المناسب. أنت مستمع وأنا أتحدث، ومادمت اكتفيت أنا من الحديث. فما جدوى البقاء لوقت آخر. قبل أن أرحل أدعوك في المرة القادمة لزيارة منزلي المتواضع، والحديث هناك بشكل أفضل..!

أشعلت سيجارة ثم فكرت للحظة في الدعوة. لقد كان المكتب مناسبا للحوار النفسي، لكن يبدو أن لسامر سر في هذه الدعوة. فوافقت عليها بمزحة سألته أين منزلك. فقال بصوت هادئ:

سأنتظرك غدا في السابعة مساءا عند متجر العم ماركو بالطبع تعرفه جيدا. إلى اللقاء..!

خرج سامر تابعته أصوات فوضي أخرى بداخلي. سيمفونيات النصر في معركة العقل والقلب. التحمت لقد أعطى لي القدر فرصة ذهبية لرد الاعتبار.. لن أنكر في لحظة ما أردت معانقتها وإنهاء كل الخلافات بيننا، ولحظة أخرى كنت قاب قوسين أو أدنى من الموافقة علي عرضها. نعم لطالما استولت علي عقلي وقلبي وحياتي. كانت ملكة تتربع علي عرش مدينتي الصغيرة أو ربما أحببتها؛ لأنها كانت تشبه الأطفال في براءتهم. كانت معركة حامية تدور بداخلي وأنا جالس معها لحظة واحدة ولن تعود الحياة كما كانت بعدها. أتخذت القرار المناسب في الوقت المناسب. نعم خسرت كل شيء، ولكن خسارة يوم واحد خيرا من مجموعة خسائر. رن الهاتف وأنا شارد في صراعي المنتهي..

- طاب مساؤك

- أهلا ديرا.. ماذا حدث..؟

تأخرت قليلا في الرد شعرت إنني أحرجتها

- لم يحدث شيء فقط أريد الاطمئنان عليك.. عموما تبدو علي ما يرام.. أنا آسفة علي اتصالي دون مناسبة.. إلى اللقاء

أغلقت الهاتف في سلام. . تعمدت إحراجها لتتوقف عن أفعالها الطيبة رغم حاجتي لها، لكن كان كبريائي يستحوذ علي ما تبقي مني. .

ديرا فتاة فرنسية مسلمة تعيش وحدها في منزل بمدينة كان المشهورة، تهوي العزف، لكنها لم تنضم لأي فرقة موسيقية. تابعت كتاباتي من مدّة طويلة. . هذا ما اعرفه عنها. فقط لم أهتم بمعرفة المزيد، فلن يروي حكايات الشباب عطش عجوز، ولن يهتم الحانوتي بصراخ النسوة، في النهاية سيدفن المرحوم.

قبل أن اذهب للمنزل وجدت مذكرة يومية صغيرة أسفل المقعد الذي كان يجلس علية سامر. كان لها غلاف أسود، ومكتوب في الأعلى . . (العزلة) كانت الصفحات مكتوبة بخط سيء يصعب قراءته. أعددت فنجان القهوة، وأخذت قرارا بالمبيت هنا في المكتب، فالإرهاق تمكن من جسدي النحيل. فتحت المذكرة بشغف ورغبة في استكشاف ما تخفي ذاكرة سامر.

"الصفحة الأولى"

المقدمة:

أهلا بك يا أنا. لن يقرأ أحد هذه الحالات السخيفة؛ لذلك سأكون صريحا معك من البداية. لن أخفي عنك حزني ووجعي، ولن ارتدي بين صفحات هذه المذكرة قناع القوة والكبرياء. الآن أعلن تزوجي من ورقاتك، ومعاشرة خطوطك الصغيرة. بهدوء لن أزعزع استقرارك لكنني أعدك بإثارة كل الثورات الجامحة بداخلك. فقط انتبهي ولا تسخري من حزني، وأبعدي كل البعد عن استعلاء جسدي الضعيف أمامك. إني خيرتك عن البشر فابتسمي، فأنا أثق بك تماما، وأعلم ثقتك بي، ستنفرين مما أنفر، وتكرهين الأوغاد الذي أفسدوا حياتي. لن نفترق أبدا. أعدك. وأعلم صدق وعدك. .هذا ميثاق بيننا سأحكي لك كل شيء، ولنلتقِ مجددا في الصفحة الأخيرة. وداعا!

انتهيت من قراءة الصفحة الأولى سقطت سيجارتي من إطراف أصابعي لتشاركني ذهول المقدمة. هناك أشياء أحن علينا من البشر، لكن لا نستطيع أن نتزوجها، فهذا هراء غير منطقي. سمعت عن لوعة

القهوة ولعنة الوسادة، وعشق النيكوتين، لكن في النهاية هي علاقة غير منطقية، محدودة تنتهي مع ترك الشيء أو انتهاء حاجته. لن تدوم ولن تبقى مهما حاولنا الحفاظ عليها.. !

فجأة رن الهاتف. صوت دافئ عميق يتحدث بهدوء..

- من فضلك أغلق المذكرة.. أنا في الطريق إليك

أزحت المذكرة وألقيت بها أرضا. ارتعدت خوفا كسارق تسلل لمنزل بعد منتصف الليل وتم الإمساك به.

- لقد وجدتها بالصدفة اقسم لك

- لا تقسم اعرف كل شيء.. ارتدي ملابسك ستبدأ الجلسة عندي بعد ساعة من الآن. بالمناسبة لا تكذب أنت متشوق لمعرفة المزيد. اعلم أن الوقت غير مناسب، لكن حين يأمر القدر فلا قيمة للوقت إلى اللقاء.. !

أغلق الهاتف في وجهي ليبث روح الرعب في قلبي.. لماذا أجبت

علي سؤاله. لماذا لم اكذب وكيف عرف إنني وجدتها وأقرئها الساعة الثانية بعد منتصف الليل أي جلسة هذه التي سأحضرها في هذا الوقت. .لماذا طلب نقل الجلسة إلى منزله، ولماذا أصر علي إتمامها الآن. كيف وكيف ولماذا كلها أسئلة تأبى أن تنحني لتحليلاتي ونظرياتي. للنفس البشرية قانون خاص متغير لا يعترف مطلقا بالنظريات والتحليلات العلمية. .نهضت سريعا وارتديت ملابسي علي عجل كصحافي يستكشف خبر حصري. في التمام بعد ساعة اتصل بي، وقال إنه في انتظاري. .!

أغلقت الباب وهبطت في المصعد. .كنت متوتر بعض الشيء من هذه المقابلة. رأيته وكان يرتدي معطفا طويلا لونه أسود وتبدو علية ملامح الغضب. لم يصافحني، فقط انطلق ببطء. سألته أين يقع منزلك أجاب. .(ستعرف كل شيء بعد قليل) وعاد لصمته. كانت الطرق خاوية علي غير العادة، فمدينة العشاق لا تهدأ، ولكن ثمة مدن لا مقياس لها. فقد تجدها تعج بالبشر في النهار، وخاوية في المساء والعكس صحيح. باريس مدينة لها طقوس خاصة، فوحدها قد تجد في رصيف واحد قبلة عشق هنا، ودمعة غياب هناك. عناق لقاء ونظرة

أخيرة قبل الغياب. . ظللنا نمشي ونمشي حتي وصلنا للمقابر. وقف سامر للحظات ظننت أن مرورنا هنا بالصدفة لكنه لم يكن كذلك نظر لي ثم قال. .

ـ اتبعني ولا تنظر خلفك

ـ هل تسكن هنا. . ؟

ـ هل أنت خائف. . ؟

ـ لا

ـ إذن لن تفيدك الإجابة في شيء. . أتبعني. . !

أخذنا الممر الضيق، وحولنا مباني صغيرة ساكنة. . كان القمر مكتملا، يحوطه بعض الغيوم. الهواء بارد يحمل برودة وسكون المكان، وصوت معارك بين الذئاب تغطي حمية أصوات القبور في الأرض. يقال أن بعض الحيوانات تموت هنا بسبب سماعها لأصوات القبور. أنا أعرف بعض الأشخاص يموتون بسبب كلمات البعض. لا فرق بينهم، فالضجيج يقتل كل روح مهما كانت طبيعتها. . أسماء مكتوبة بتواريخ الميلاد، وتاريخ الوفاة، وبعض عبارات الحزن مكتوبة

بطريقة تدل علي حزن كاتبيها. كل شيء هادئ متجمد، لا يبالي بمن حوله، فقط كل منهم مشغول بمن ينتظره في القبر، فأحدهم يلدغ بثعبان، والآخر يعش في نعيم الفردوس، وكلاهما لا يعرفان الآخر. فقط تذكرت كلمات جدتي حينما أخذتني إلى مدفن جدّي للمرّة الأولى، وقفت أمام السور الفاصل بين المقابر والطريق الرئيسي، وقالت "سور واحد يفصلنا عنهم. بين عتمة أبدية حتي إشعار آخر، وبين مزيج من العتمة والضوء. الأحياء لا يتفقون علي الحياة، فقد تجد شخصا يطلب من الله عمرا مديدا والآخر يتمني الموت الآن. هناك فرق بينهم، لكن حينما تتساوي المقامات ويعانق الموت الجميع، تصبح الحياة أمنية لن تتحقق. صدقني لا أحد خلف هذا السور لا يتمني العودة لها حتي الذي ينعم في قبره يتمني الخروج من هذه العتمة؛ لفعل مزيد من الخير حتي ينعم أكثر فأكثر" .. في الصغر كنت اخشي المقابر. اخشي الاقتراب منها، رغم نصيحة جدّتي أن الشر يكمن في الخارج، ألا إنني لم أطمئن. السير وحدي في ممراتها الهادئة. كان كابوسا لعينا يطاردني في المنام. كنت أخشاها كثيرا كطفل يخشى الجلوس وحيدا بالمنزل. لكن منذ فترة أعتدت زيارتها. نضجت وعلمت أن لا فرق بين ممرات المقابر والطرق العامة. فقط لن

يؤذيك احد في المقابر حتي الأشباح تخشي أقنعة الأحياء. أيقنت أن الموتى لا يستطيعون إيذائك. أو إنني أيقنت حقيقة الأمر. تذكرت خبر وفاة جدّي، وصفعته التي لازلت أعاني منها للآن.. مراد ايضاً في رقعة أخرى من الأرض.. آه يا ربي اللعنة علي مقابر احتوت أحبائنا وقلوبا تنزف وجعا..!

تعمقنا أكثر وأكثر..كلما تعمقنا بالداخل غابت عنا ملامح الحياة فالهواء بات شحيحا والعتمة اكتملت سياقها. غاب القمر بين غيوم ابريل الهشة وأنشدت الذئاب بصوتها منفردة، تعتلي كل الأصوات. فجأة وقفنا أمام منزل صغير يشبه منازل الريف السويسري القديمة. ضرب الباب بقدمه ودخل، ثم دعاني للدخول. كان البيت عبارة عن غرفة واحدة، وحمام ومطبخ. موجود في منتصف الغرفة طاولة لفرد واحد وسرير صغير علي في أقصى اليسار توجد مدفئة حجرية، و بجوارها جرامفون.. حيطان الغرفة عبارة عن معرض لصور مختلفة من الأدباء، والفرق الموسيقية ومشاهير الفن والسياسة. سألته

ـ غريب.. لا يوجد أي صورة لهؤلاء من الأموات..؟

ـ إن وضعنا زهرة ذابلة في القبر . . هل سيبتلعها الموت . . ؟

ـ لا . . لكن ماذا تقصد . . ؟

واصل كأنه لم يستمع لسؤالي . .

ـ إن وضعنا قطة في القبر هل سيبتلعها الموت . . ؟

ـ بالتأكيد

ـ هذا هو الموت يختار دائما الأحياء . الأمر يختلف مع البشر عن غيرهم من المخلوقات . . فالموت بخيل علي من أفسدته الحياة وكريم وما أكثر كرمه علي الذين هربوا منها . . الموت ذكي يحتضن نصف الحياة، ويتركنا نلهث خلفه؛ ليبتلع النصف الآخر منا، لكنه لا يفعل، ويزيد دلالا وعظمة، فلن يبتلعك الموت حتى يرضى عنك، ويا لصعوبة إرضائه . . !

رنت في أذني جملة فرويدة الشهيرة "لماذا لا يموت أبناء العاهرات" . أمد جسده علي السرير، وقال: فلنبدأ . نظر للسقف وبدأ . .

ـ منذ تضرة ملامحي وأنا اشعر إنني هنا بخطأ فادح . أي خطيئة فعلها أبي ليعاقبني الله عليها . في مجتمعنا نحن لا نحاكم بالشرع لا نخاف

الله، لكننا نخاف العيب والناس. هنا كانت الفجوة الصارخة. كنت أرى البعض يمدح في الآخر، وفي غيابه يسب ويلعن وجوده. لن أتحدث عن شخصيات بعينها، ففي حياة كل منا شخصيات تجيد النفاق. أنا أكره النفاق وأكره المدَّعي. في أحد الاجتماعات العائلية جلست أتابع ما يقولونه دون أن يلاحظ أحد اهتمامي بما يدور. كان أبي يشيد بمواقف عمي النبيلة معه، وأنه شخص نادر في هذه الحياة، وأنه محظوظ جدا بما قدمه له من مساعدات. تبادل الحضور الابتسامات والضحكات العالية شعرت وقتها بدفء الإخوة، وروح الحب والمودة بينهم. بعد أن انفض الاجتماع ورحل الجميع كان أبي يتحدث مع أمي عن عدة أمور في غرفتهم. أخذني فضول طفل يهوى أحاديث الكبار أن انصت لما يقولون. فجأة سمعت أبي يسب ويلعن في عمي الذي امتدحه في حضورنا. اكتفت أمي بكلمة 'اهدأ يا بو سامر. اهدأ' في الحقيقة لم أعرف أسباب بغض أبي لأخيه الأكبر، لكن عرفت وقتها أن أبي منافق. طرقت علي باب الغرفة ودخلت..

- ماذا تريد يا سامر..؟

قالتها أمي بحنان وهدوء..

ـ أريد أن أسأل أبي عن شيء؟

كان أبي يشاهد التلفاز لكن سؤالي جذب انتباهه

ـ أبي هل تحبني مثلما تحب عمي؟

استقبل أبي سؤالي بابتسامة عفوية ثم قال . .

ـ نعم يا سامر احبك جدا يا طفلي

فكرت في الخروج من الغرفة بعد إجابته، لكنني لم أتحمل نفاقه فنظرت له وقلت . .

ـ سأخبرك بأمر ما في مدرستي . هناك زميل لي كان يقول انه يحبني وكنت أثق في حبه، لكنني سمعته يتحدث عني بسوء مع زميل آخر هل هذا حب يا أبي؟

لم يتوقع أبي ما أريد أن أخبره بهذه الحادثة فأجاب بعفوية . .

ـ لا هذا نفاق يا صغيري . . !

صفعته بردي المباشر الطفولي

ـ إذن أنت لا تحب عمي . لقد سمعت ما دار بينك وبين أمي . أنت منافق يا أبي!

لم أفق بعدها ألا وأنا علي سريري في حضن أمي، وهي تقرأ لي بعض من آيات القرآن. كان وجهي شديد الاحمرار، وأنفي تلفظ الدم إلى الخارج. عاتبتني أمي بكلمات لحفظ ماء الوجه وعلي أبي وهي تجفف النزيف..

- لقد أخطأت في حق والدك يا سامر.. لا يصح أن تقول علي أبيك انه منافق.. لم تتربي علي هذه القيم والمبادئ..!

ثرت في وجهاها وأنا أبكي..

- لا يا أمي لم أخطئ.. لقد تعلمت منك أن الحب الصادق خالي من الكذب والخداع وهذا ما لم يفعله أبي..!

مسحت علي وجهي، وهي تطويني بين ذراعيها وقالت..

- أبوك رجل كبير يا بني.. وللكبار حب مختلف عن حب الصغار هذه هي الحياة يا حبيبي..!

نظرت لها في دهشة..

- إذن الكبار لا يعرفون الحب..!

ضحكت ضحكتها الجميلة حين أقول شيئا يعجبها، ثم قبلتني

علي رأسي وهمست . .

ـ الكبار لا يعرفون الحب يا حبيبي . لكني أحبك بصدق . . !

عانقتني حتى غدوت في نوم عميق . . بين ذراعيها ودفء أنفاسها الطيبة . . !

حك سامر رأسه وواصل بضحكة مريبة . .

بعد عام من هذه الواقعة . . ماتت أمي، كان وفاتها دليلا من السماء أن الذين يعرفون الحب يموتون في الصغر . أمي كانت مثالا للحب النقي الدافئ . قدوتي ومثالا رائعا تمنيت أن أكون مثلها في يوم . أتذكر يوم استيقظت باكرا من قسوة الكوابيس علي غير العادة . شعرت بغصة في قلبي كانت الشمس باهتة جدا، رغم حرارة شمس أغسطس، ألا إنها كانت باهتة في هذا الصباح . . نهضت سريعا، فقلبي يخبرني أن أمرا ما سيحدث . رأيت أمي واقفة في المطبخ، عانقتها من خصرها ووضعت صدري أسفل نهديها. كنت محظوظا بقصر قامتي لأنه يجعلني دائما في منبع دفئها . . تشبثت أكثر وأكثر، فابتسمت

وقالت 'يكفي هذا يا حبيبي. ارتدي ملابسك حتي اعد لك الإفطار' رحت للغرفة ولا تزال الغصة تداعب قلبي. ارتديت ملابسي ورحت أجلس علي الطاولة. أقتربت مني حاملة معها بعض سندوتشات الجبن المخبوز. . فجأة ارتطمت بالأرض. يا لقسوة ارتطامها. تصلبت للحظات من هول المنظر. ومن هول السقطة استيقظت أختي الكبيرة وصرخت صرخة لا زالت تتردد في أذني حتى الآن. . سقطت أمي حاملة الإفطار وسقط الحب معها. . !

ـ هل اكتفيت. . ؟

سألني سامر وهو يحاول أن يخفي دموعه عني. . كان عقرب الساعة يقترب من الخامسة فجرا، لكني لم أكن أبالي بالوقت. .

ـ لا أريد المزيد

ـ حسنا سأعد لك القهوة

نهض من سريره وأشعل الموقد ليعد القهوة، سألني بمزحة تلقائية

ـ إنها الجلسة الأغرب علي الإطلاق. . لكن إياك أن تنكر انك تستمتع

بالأمر . . !

ـ نعم الأمر مختلف . . لكن ماذا عن مذكراتك . . !

قال بعجرفة مصطنعة . .

ـ الآن ستقرأ أنت الصفحة الثانية وأنا سأحكي لك قصتها . . فلنبدأ . .

مسكت المذكرة وبدأت اقرأ كتلميذ أمام مدرسه . عاد إلى سريره ، وعدت للكرسي . كان الجو مناسبا للحديث في حضور القهوة ، ونسمات الصباح المنعشة ، حتى ونحن هنا في عمق الأموات . تبقي الأشياء الجميلة جميلة مهما تحدث .

"الصفحة الثانية"

أنا الآن محطم تماما. . هذه الضربة الثانية بعد ضربة وفاة أمي.
جلس أرضا بخمول، وأسند ظهره علي الحائط المنهك. . رأسه يحمل ثقل لا يحتمل كحرب أمعاء في معدة طفل صغير. كشف عروق يده البارزة، أراد دس السم في وريده؛ ليتخلص من هذا الجحيم. . المجتمع يا لقسوة المجتمع ومخالبه. . ثمة أشياء بداخله لا معني لها. . صمته يثور أحيانا، ويهدأ أحيانا دون جدوى. . عقله لا يهدأ. التفكير اللعين أطاح به. . مدينة صغيرة ترفض احتضانه، ووطن كبير خالي من الأمن. عن الخذلان وعن الألم والوجع. . الخيبات التي انهالت عليه. . والفواجع المميتة. . أستعرض أمامه كل لحظات الألم والوجع. . تنهد لتخرج من بين تنهيداته كل معاني الحزن. وبصوت خافت قال. . لا بأس ثم انفجر باكيا. . !

انتهيت من كلماته المكتوبة بخط يصعب علي أحد قرائته فقال. .

بعد وفاة أمي تحولت حياتي مع أبي لعلاقة رسمية. . نعيش معا تحت سقف واحد، وتبعدنا مسافات ومسافات لا أعرف سببا لها. هل

خانتني كلماتي، هل كان عليّ تحري الدقة في اختيار الكلمات بعناية.
أحيانا أشعر إنني أخطأت في حق والدي، أتفاخر بما فعلته.. كان بيننا سدود وعواقب ليعود الابن الضال في زهد أبيه، أو يعود الأب المنافق في نقاء ابنه الصغير. كلانا كان يبحث عن حل في صمت وهدوء، ومع مرور الوقت اختفت الحلول كما تختفي لهفة العشاق، فانتهت علاقتنا الروحية أو ربما انتهت علاقتي بالنفاق، ومات الحب مع موت أمي. أستمرت علاقة روتينية بيني وبين أبي. مع مرور الوقت يتسلل العجز لجسد أبي ويتسلل الكبرياء شخصيتي. التزمت في دراستي، فكانت من أحلام امي أن تراني مهندسا معماريا، وهذا بالضبط ما حدث.. تخرجت من البكالوريا، وتزوجت أختي، واستقرت حياتي النفسية.. وحيدا اقرأ، وحيدا أكتب، وحيدا أخرج، وحيدا أبكي.. في فترة البكالوريا كان لدي بعض الأصدقاء. حاولت الخروج من هذه القوقعة. اقتربت منهم، ورغم إننا ندرس في نفس المجال ألا أن الفجوة الفكرية بيننا كانت عظيمة، فأنا اهتماماتي مختصرة في أحدث إصدارت الكتب، وجمع الألبومات الغنائية لفيروز وحميد الشاعري، وسعاد ماسي، علي عكس اهتماماتهم كمباريات كرة القدم، وحضور عروض السينما ومرافقة جميلات الجامعة.. بالمناسبة

للمهندسات سحر خاص في شخصياتهن . جاذبتني إحداهن لقلبها . كانت جميلة حاولت الاقتراب من عزلتي بحياء وهذا ما حدث. ولكن كان عليَّ اختيار النهاية قبل أن تبدأ البداية ، وهذا ما حدث ، فرغم أن علاقتنا لم تستمر طويلا ألا أن مشاعرنا كانت متوهجة . كانت حلما جميلا ، لكن حلم السفر كان أكثر جمالا منها . اتفقنا أن تصبح علاقتنا عابرة . نقط كل منا يجد ضالته في الآخر ، وحين يأمر القدر ، يذهب كل منا لطريقه بعيدا عن الآخر . لم تصبر الحياة طويلا علي علاقتنا ، فلقد مات أبي وعليه كومة من الديون لا تنتهي ، تزامن مع عرس أختي أن تقدم شاب لخطوبة 'ليندا' طريقان كل منهما سيغير حياتي لا محالة . الأول أن أتحايل علي الذين أعطوا لأبي المال أن ينتظروا حتى انتهاء دراستي لأسدد الديون ، وبالتالي سيفقد أبي شهرته وسمعته في مجال العمل . الحسنة الوحيدة في هذا الطريق إنني سأحقق حلم أمي في التخرج من كلية الهندسة ، ولكن أختي الكبيرة ستعاني من تحقيقي لهذا الحلم ، فسيتوقف أمر زواجها نهائيا . أما الطريق الثاني فلن يكون رحيما بي ، فترك الكلية والعمل ليل ونهار لسداد ديون أبي ، وتحضير مصاريف زواج أختي لأحافظ علي سمعة أبي وعائلتنا من التشويه ، ولكنني سأخذل عهد أمي معي ، ولن احصل علي ليندا . صدمتني

الحياة بلحظاتها العابرة المخيفة. وذات ليلة نمت وأنا ابكي من خيباتي حين تجتمع عليك الحياة، وتبتسم وهي ترتوي من دمائك ما بين الأحلام وما بين الأمنيات. الواقع والمفروض لماذا اختزلوا الموت في دفن جثمانك في عمق التراب. .ألا يعتبر دفنك في بحر الخيبات موتا أيضا. .للموت أشكال عدّة. منها حياة بلا حلم بلا أمل، بلا روح، حياة بنكهة الموت. .في الختام اخترت الطريق الثاني لن احصل علي ليندا، ولن احقق حلم أمي، سأعمل جاهدا من أجل الحفاظ علي سمعة عائلتي من الانهيار. .طلبت ليندا علي الهاتف وأنا في حالة لا بأس بها. .

- ليندا. .أنت علي علم بما أمر به خلال هذه الفترة. . نعم علاقتنا عابرة، لكني اعتدت علي وجودك. .لم أعدك بالبقاء، ولكن في عمقي كنت أريدك وبشدة. .أنا رجل سيء، اعتاد علي الأشياء الجميلة رغم علمي أنها لن تدوم. نحن نكذب يا ليندا. أخفينا صدق مشاعرنا ولوعتها بإطار العلاقات العابرة المزيف. .هذه هي الحقيقة. نحن نكذب تماما حينما قال نزار قباني 'لقد كنا نكذب من شدة الصدق' هذا ما حدث معنا. .أحببت الوقت الذي تقضيه

سويا بعيدا عن الناس. تعلقت بكلماتك واهتمامك وابتسامتك، شعور البهجة والفرحة والأمان في حضورك.. تلك الأشياء والمشاعر الجميلة التي لا تشترى، ولا يمكن وصفها. المؤسف أن الحياة اهتمت فقط بقناع كذبتنا، ولم تبال بصدق ما يخفي خلفه. النصيب كذبة ولكن للقدر إحكام أخرى أصعب مما نظن. ويا لقسوة أحكام القدر يا ليندا. اعذريني لن نلتقي مرة أخرى، ولن يجمعنا طريق واحد. فقط ستبقين خالدة في ذاكرتي، بين كتاباتي، وجدران غرفتي. سأتذكرك دائما في الغروب والشروق، ومواعيد الصلاة، مع كل نقطة مطر، ومع أول وردة تسقط في خريف استراليا. الحياة قاسية جدا في لحظاتها، والقدر يجيد الأحكام العنيفة حيال الحب. عسى أن نلتقي صدفة يا ليندا بعد عشرة أعوام مثلا. أظن وقتها لن نعرف بعضنا الآخر، ستصبحين أما رائعة بشخصيتك الجميلة، وحكمتك العميقة، ودفئك. أما عني فلا اعرف ماذا يخبيء لي الزمن من أحداث. على أي حال ثقتي كبيرة في ذاكرتي، فلن أنساك ابداً حتى إن التقينا بعد زمن، سأتعرف عليك بسهولة. فالذاكرة لا تنسى شخصا عادة قلوبنا تنبض لأجله. إلى اللقاء.. إلى اللقاء يا حبيبتي...!

لم انتظر من ليندا أي رد أغلقت الهاتف، ورحت في نوبة بكاء هسترية وأفكار الانتحار تراودني، ظللت أبكي حتي غلبني النوم ورأيتها.

' صمت سامر للحظات ليعيد نشاط ذاكرته من جديد ثم واصل . .

كنت أجلس على جسر عظيم، علي يميني بركان علي وشك الانفجار وعلي يساري مياه شاسعة يخرج منها لؤلؤ، لكنها في قبضة مجموعة من القروش المفترسة. فجأة أهتز الجسر هزة عنيفة كادت تطيح بي إلى أحد الخيارين، وإذا بأمي ربتت علي كتفي وابتسمت. يا لروعتها. يا لروعتها. كانت ترتدي جلبابا أبيض أقسم لك لم استطع تمييز لون ملامحها من لون الجلباب. الموت لا يغير جمال الروح مهما حاولت الديدان أكل الجسد. تبقي الروح من انقي من كل شيء. تمعنت في جمالها ونحن نهتز يمينا ويسارا عانقتني ذاك العناق الأخير قبل خمسة عشر عاما، ثم قالت: يا حبيبي الحياة حرب لا حب حرف واحد فقط يحمل معه كل المعاني البشرية والإنسانية. كنت اخشي وجودك هنا في هذه الغابة، وطلبت من الله أن يتوفاك قبل أن يتوفاني حتى أحافظ عليك من مخالبها لكن الأعمار بيد الخالق وحده، يختار وقت الوفاة. أنا أعرف مرارة الخيارين، ولكن صدقني لا بديل إما أن

تقذف نفسك في هذا البركان لتخلد في الجحيم إلى الأبد، أو أن تغمر في المحيط لتستمع باللؤلؤة، لكنك لن تسلم من تحرشات القروش المفترسة. صدقني الانتحار يعني الجحيم الأبدي، وأنت لا تستحق أبدا أن تقبع في الجحيم.. انهض. !

لا تبالي بأحد.. انهض وقاوم حتي وإن كنت تعلم النهاية.. لا تدع أحلامك المحطمة تحكم ما تبقي من عمرك. لا تترك لقلبك الفرصة في اتخاذ قراراتك القادمة. أنس الحب إن كان سببا في حطامك.. وابتعد قليلا عن أحاديث المجتمع الهدامة. استمع للموسيقي. قد تعطي لك المزيد من الهدوء.. حافظ علي حديثك مع الله.. تحدث معه واخبره بكل شيء دون حرج. حافظ علي المساحة الخاصة لحياتك مهما كلفك الأمر من فقدان للبعض.. أنت رجل والمقاومة خلقت لنا. حتي وإن كنت تعلم نهاية كل هذا الهراء.. فمن الخزي أن يموت الرجل في معركة دون أي مقاومة. حتي وإن لم تكن من البداية طرفا في المعركة. قاوم يا ابن فلذة كبدي. أحبك، ثم قبلتني علي جبيني واختفت، ودون وعي سقطت في المحيط.. !

- كم الساعة الآن يا عمر..؟

سألني سامر وإنا سارح معه في حلم الجميل..

ـ السابعة والنصف . . !

هل فهمت شيء من رسالة أمي في المنام . . ؟

ـ ماذا حدث لك فيما بعد . . ؟

ـ لن أطيل عليك أكثر من ذلك . . فقط ما بين حلم أمي وهذه اللحظة عشر سنوات فقط . مرت إحداثها سريعا قبل أن احكي لك ما حدث . هل تحتاج لقسط من الراحة . . ؟

ـ لا لا فقط عد لنا كوبا آخر من القهوة . . !

ضحك ضحكته المريبة ثم نهض من سريرة وذهب للمدفئة وبدء في تحضيرها . .

وذهب للمدفئة وبدء في تحضيرها وهي يدندن بالفرنسية مقطوعة غنائية . .

A bout de mots, de rêves je vais crier ..
Je t'aime, je t'aime
Comme un fou ..
comme un soldat ..
comme une star de cinéma ..
Je t'aime , je t'aime

ثم سألني

ـ هل تابعت أحداث الثورات العربية . . ؟

ـ لم يحدث في الشرق الأوسط ثورات بالمعني الحرفي، فما حدث في مصر نصف ثورة، وما حدث في ليبيا فوضي خلاقة. كذلك سوريا واليمن أظن أن تونس هي الناجية الوحيدة من هذه الزوبعة . . !

ابتسم بخبث ثم قال . .

ـ ما رأيك فيما وصل إلى حال الأوطان العربية بعد هذه الثورات . . ؟

ـ مزيد من القتل والسرقة والكذب والنفاق مع اعتيادية الظلم والقهر والقمع . . !

ـ مشكلة الشعوب العربية يا عمر أنها تسمع وتصدق دون وعي إنها ترسخ مبادئ وتتبني أفكار علي هواه . الإعلام العربي تابع للنظام ويخضع لولايته الفكرية ليبث لنا ما يريد النظام بثه في عقل الشعوب. لو إنني أقسمت لك إنني أستطيع التحليق في الفضاء بمفردي وصدقتني، بل ودافعت عني أمام المشككين في كلامي من المخطئ هنا . بالطبع أنت، فانا كذبت لكنك صدقت الكذبة،

ودفعت عنها باستماتة، وغباء. هذا ما يحدث. ناهيك عن الاهتمام بالمظاهر الخارجية فلو إنني عاشرت النساء كل ليلة، وفي الصباح ارتديت جلبابا ولحية مزيفة مع استخدامي للكلمات الدينية لجذب الجهلة، لقال عني الناس إنني درويش من الصوفيين. . هراء. نحن نعيش وسط مجموعة من الأغبياء السذج. انظر لمعارض الكتاب مثلا ستجد العشرات من الشباب، ولكن القي نظرة علي عروض السينما وأفلامها الهابطة، وحدثني عن الألاف من الشباب أيضا. بالطبع تعرف ما اقصد. حتي في القرارات المصرية كالزواج. قرأت مرة قصة لشاب فقير تقدم لخطبة فتاة فرفض والدها طلبه، وقال انه فقير لن يستطيع إسعادك. وبعد فترة تقدم ثري لخطبتها رغم علم أبيها بأخلاقه المنحرفة فقال غدا سيهدي الله. يا للعجب. ألا يعرف هذا الأحمق أن الهادي هو الرزاق يا عمر. وهكذا بين زنا المحارم، وزواج القاصرات، وهتك عرض الأطفال، ارتفاع نسبة الإلحاد، مع ارتفاع معدل الانتحار. كل هذا العفن المقزز الذي نعيشه في قمع وقتل والحلال وفساد وجهل. كل شيء اجبرني علي السفر لباريس. المضحك أن هناك من يسأل ويستعجب من أحلام

الهجرة لدي بعض الشباب . هل هذه الأوطان تصلح للحياة؟ هل هذه الأراضي الصلبة تستطيع احتضان أحلامنا الوردية بالطبع . هاجرت للحياة هناك بعد أن سددت ديون أبي وتزوجت أختي، وعلمت بخبر زواج ليندا . في شهوري الأولى كنت اعمل غاسل صحون في أحد المطاعم. هناك لن يهتم احد بأصل عائلتي العريقة، ولن ينظر لي مجتمعهم نظرة سخرية من عملي، واظبت علي القراءة من جديد، وعاهدت نفسي ببداية جديدة للحياة . كان في قلبي غصة من نهايتي الحزينة مع ليندا، لكني بدأت . كنت أحافظ علي نفسي من الحرية المفرطة هناك. بالمناسبة إن أردت أن تعرف أخلاق الملتزمين دينيا. أترك لهم خيط الحرية، وتابع ماذا سيفعلون بعدها. فلم يكن حفاظي علي نفسي من المجتمع الفرنسي ألا لإيماني التام بوجود سقف لحريتنا اسمه'الشرع' ولطالما كان الشرع نصب عيني دائما. مرت حياتي هادئة حتي تعرفت علي شاب من بغداد يدعي يوسف العلوي كان زميلا في العمل، جاء من بغداد كلاجئ سياسي من قمع الأنظمة الحاكمة هناك. طبيب القلب ذو وجه بشوش، كنا نقضي معا أيام العطلة الأسبوعية. كان مسالم بشكل كبير رغم خلافي الفكري معه في

بعض النقاط ألا إنني أحببت وجودي معه. كان صديقي الأول.
هون الكثير والكثير من غربتي ووحدتي هنا. ترقينا في العمل
خطوة تلو الأخرى حتي أصبح كل منا مسئولا عن فرع من فروع
المطعم في باريس ومرسيليا. وأصبح لكل منا شقته الخاصة. هو
يعيش في مرسيليا وأنا هنا في باريس، لكننا كنا نقضي معا العطلة
الأسبوعية ونتبادل الأحاديث الهاتفية، والالكترونية بشكل يومي.
وفي احد اجتماعات مديري الفروع كان حاضرا السيد رومان مدير
المطعم ومديرة الفروع الآنسة نيفين مع المسئولين الخمسة عن كل
فرع من باريس ومرسيليا وموناكو وكان ونانسي.

كان اللقاء الأول الذي يجمعني بنيفين، تحدثنا عن عدة امور
تخص الأسعار وجودة الأغذية. ولتهدئ من توتر الاجتماع، تحدثت
معنا عن الحياة الشخصية فبدأت بالسؤال معي أنا ويوسف بحكم
أصولنا العربية نظرت إلى يوسف أولا وقالت..

ـ هل تعجبك الحياة في مرسيليا يا يوسف..؟

ـ الحياة في مرسيليا رائعة ها هنا، وفاتنة أيضا.

ضحك الجميع بما فيهم السيد رومان والآنسة نيفين ثم سألته..

ـ لماذا لم تتزوج إلى الآن. اعذرني علي اقتحام خصوصياتك..؟

ـ في باريس بشكل عام ومرسيليا بشكل خاص كل شيء مباح ومتوافر علي أن استمتع بهذه المميزات قبل أن استقر في حياتي الزوجية

قطعت حديث يوسف بتلقائية غير مقصودة . .

ـ عدا الحب يا يوسف

نظرت إلى تيفين ثم قالت

ـ ماذا تقصد يا سامر . . ؟

ـ اقصد أن الحياة في باريس صالحة للحب لكنها شحيحة به . . الحب الذي نريده لا يناسب الحياة هنا . . كشرقي يعرف تماما أصول الحب، فانا لن اسمح بالحرية المطلقة لزوجتي . ليس حكرا عليها، لكن هناك نخوة تمنعني من الموافقة علي بعض الأشياء في الحرية . . الحب الباريسي الذي يختصره العشاق في الخروج، وليالي العشق الملتهبة، وكلمات الحب المعسولة . كل هذا حب هوائي لا يناسبني . . !

عن دون قصد فتحت بابا للمناقشة في أمور لا تخص العمل، ولكن نظره السيد رومان أعطتني إحساسا بالأمان واستمرار المناقشة سألني . .

ـ وما هو الحب الذي تبحث عنه يا سامر . . ؟

ـ انه الحب المرهف يا سيدي . .الحب الذي يحتاج منا لمجهود خرافي لتحقيقه . .في زمن أصبحت مشاعرنا عبارة عن تبادل رسائل الكترونية سخيفة. أين نحن يا سيدي من قصص الحب التي تعلمناها في الصغر. ماذا نعرف عن انتظار الرسائل الورقية المكتوبة بخط اليد. عن لوعتنا بها، وخوفنا من تأخير إرسالها ووصولها. أين نحن من تضحيات الملكة غيونيفر التي ضحت بسلطتها لأجل العشق، وحزن أوفريدس بعد وفاة اوستوريتس. لوعة قيس وجنونه بليلى. تلك القصص الغرامية التي تعلمنا منها معني الحب والتضحية والوفاء. أما الذي يحدث في هذا العصر مجرد احتياج ليس أكثر . . !

صمت الحضور في ذهول . .سقف السيد رومان، وابتسمت نيفين، ثم عدنا لسياق الاجتماع وانتهي الأمر، لكنه بدأ بطريقة أخرى. بدأت نيفين بعد فترة الاقتراب مني، لكنني كنت ارفضها بطريقة أو بأخري. علي الأرجح كنت ارفض أن أشغل أروقة قلبي بأحد. أعلنت عذرية قلبي الأبدية بعد ليندا، حتي وإن كان القدر له رأي آخر. فليندا كانت تستحق وفائي لها . .حاول يوسف أن يلفت

انتباهها، لكنها كانت تريدني أنا بالذات .

فشلت نيفين في اقتحام قلبي، وفشل يوسف في جذب مشاعرها نحوه. حين يفشل الرجل في جذب فتاة يتحول لذئب بشري يلتهم كل ما هو سبب في عجزه. وحين تشعر المرأة بفقدان قدرتها علي جذب رجل تتحول لشيطان يبث النار في حياة الجميع . بدأت تهديدات نيفين في إعاقة مسيرة عملي، وبدا علي يوسف نية الانتقام مني ومنها . أنا فقط من سأتحمل بطش الاثنين معا. بالفعل جلست مع يوسف وأقسمت له إنني بريء من رفضها له، وإنني رفضت ما طلبته مني . استقبل يوسف كلماتي بصدر رحب، لكن لعينيه كان رأي آخر .

مرت عدة اشهر حاولت تجنب نيفين لإثبات حسن نواياي ليوسف وهذا ما حدث بالفعل، وأخيرا هدأ الصراع، وارتبطت نيفين بصديقي بعد استمرار محاولاته. وبالفعل تزوجا سريعا. كنت استعجب من أمرهم فصديقي ماكر وذكي، وليس بهذه السذاجة الذي يظن أن نيفين تحبه، أو أنها ستنام بجواره علي فراشهما الزوجي وهي تحبه .

في الحقيقة بدأ صراع القلق والظنون وما تخفي الحياة من مفاجآت

(الحاقد والكاذب والمخادع والخبيث) كل منهم يفكر بطريقة شيطانية مختلفة، لكن الهدف واحد. الانتقام أو الشر. اجتنبني القلق والخوف منذ لحظة إعلان زواجهما. طردت الوسواس الداخلي وتمنيت من الله أن يخيب ظني. فأحيانا تتمني أن يخطيء عقلك في ظنونه خوفا مما قد يحدث بعدها. وبعد عام من حفل الزفاف كان هناك اجتماع في المبني الإداري. حينما قرر السيد رومان فتح سلسلة مقاهي مع المطاعم الخاصة به، فأمر بسفر يوسف وثلاثة آخرين من مديري الفروع إلى البرازيل لشراء البن الأصلي عالي الجودة من هناك. انتهى الاجتماع، وأخذت سيارتي متجها للمنزل، ولم نتبادل أنا ويوسف أي كلمة في أمر سفره. لقد نجحت نيفين في وضع الحواجز بيني وبين صديقي الوحيد. المرأة إن أرادت الانتقام، فلن يستطيع احد إعاقتها. هكذا وصفهم الله في كتابه العزيز'إن كيدهن عظيم' نعم نجحت نيفين في زرع بذور الكراهية في قلب صديقي يوسف.

غادر يوسف باريس متجها إلى برازيليا، وأنا هنا منغمس في عملي، وفيما قد يحدث من نيفين. كنت مسئولا علي متابعة أعمال البنائين في كافة الفروع. مر الأسبوع الأول من سفر يوسف دون أي

جديد. لم يتصل بي كعادته وأنا لم أحاول ذلك. من أراد الرحيل فليرحل فانا لا أجيد التمسك بمن اختار الغياب طريقا له. وفي اليوم التاسع من سفره كانت الذكري العشرين علي وفاة أمي فحجزت أول طائرة متجهة إلى تونس. وافق العجوز علي سفري المفاجئ لطالما كان السيد رومان رجل يقدر ويحترم المواقف الإنسانية. بالفعل وصلت تونس في العاشرة صباحا. هبطت من الطائرة لينعش صدري هوائها المحمل بذكريات الحنين والشوق والعثرات. .عشرة أعوام من الغربة لم انس إنني تونسي، ولم يهدأ الحنين في قلبي إليها. .(أمي. .أبي. .أختي فاطمة. .عائلتي. .وليندا) ما أعظم الذكريات التي لم يطوها النسيان بعد. .رحت مباشرا إلى مقابر العائلة بخطوة سريعة. أخيرا سنلتقي من جديد يا أم سامر . .عشرون عاما من الغياب، والله غيابك لا يزال يمزق كل وجداني. غبت يا أمي، وكل قطرة في دمي تواصل نزيفها. إنني تائه من بعدك. أراد القدر أن أعيش يتيما في الصغر وأمرت قلبي أن لا تسكنه غيرك عشيقة.

مسحت بيدي قبرها وجلست علي قدماي أتلو بعض آيات القرآن وبعض الأدعية.

اللهم ارحم أموات المسلمين. .اللهم هون من عتمة قبر أمي،

وزين جوانبه بطيف الفردوس. .اللهم امنحها الدفء في صقيع التراب. وامنحها من ظلك ما يبدد حرّه.

قطع دعائي صوت مألوف قادم من الخلف. إنها فاطمة. . نظرت ثم تمعنت في النظر وعانقتني. يالله كم كنت في حاجة لحضن صادق دون أي مصلحة في. . كان استقبال رائع منها تحسست وجهي بنعومتها أعطتني حنان الأخت الكبيرة كما يجب أن يكون، ثم ذهبنا لقبر أبي وقرأنا آيات من كتاب الله، ثم ذهبت معها للمنزل. رحب بي زوجها. لاحظت أن المنزل منظم أكثر من اللازم. ظلت تحكي لي عن ما حدث بعد الثورة وعن أمور العائلة، ثم سألتني عن أحوالي. اكتفيت بالجملة المتادة 'كل شيء على ما يرام' أحضرت الغداء كانت الساعة الرابعة عصرا، ومعاد رحلة العودة في الثامنة مساءا تغيرت فاطمة ككل شيء يتغير حولي. .سألتها عن أطفالها دون جرح مشاعرها. .

ـ اشتاق لسماع كلمة يا 'خال سامر'. . !

ضحكت ضحكة رقيعة. .

ـ وأنا اشتاق ايضاً لكلمة 'يا أمي'. . !

ـ ما المانع إذن . . هل هناك مشكلة ما في علاقتكم . . ؟

ـ لا الأمر ابعد ما يكون عن عالم الفيسيولجيا . انه الواقع يا حبيبي . . !

حاولت اصطناع الغباء فسألتها . .

ـ لم افهم

ـ سامر . .الحياة صعبة أنا وأنت وغيرنا نعاني من صعوبتها من هذا الجحيم فما بالك بالأجيال القادمة . . أنا أحب أبنائي واشتاق لرؤيتهم، لكن لن اسمح لهم بالحياة في هذا الجحيم. ما ذنبهم للعيش هنا مهما كانت حالتنا المادية سيلعنونني حينما تقرر الحياة أذيتهم . . لن أستطيع توفير الأمن المناسب لهم. ألم تقرأ الصحف العربية يا سامر. أطفال هناك في سوريا قد ماتوا علي شواطئ اليونان. صغار في فلسطين تفحموا من غارات الكيان الصهيوني وشباب مصر ماتوا أثناء تشجيعهم في مباراة كرة قدم. مجاعات في الصومال، اغتصاب في بغداد، وخطف في اليمن . . كيف لي أن اوفر لهم مناخ آمن وسط هذه الفوضى يا سامر . . لا أريد أن يلعني

أبنائي بعد موتي . . هم هناك عند الله اضمن وارحم من ظلم الحياة . . !

- من يعلم من الممكن أن تتحسن الأمور فيما بعد . . ؟

قالت . .

- وارد . . لكن صدقني أنها نسبة معدومة يا سامر مشكلة الشرق الأوسط ليس في حكامه، لكن فيمن يقبلون بالركوع لأجل العيش ويختبئون تحت شماعة الاستقرار خوفا من الحرية. الذين تآمروا علي أوطانهم، والذين احتلوا دماء أبنائها. الذين رقصوا علي جثث الشهداء وأولئك الذين تربعوا علي عروش الفساد. أنه جسر مائل ناحية الجحيم مهما وقفنا علي أطرافه، في النهاية سيسقط لا محالة. إن الله لا يغير قوما حتي يغيروا ما بأنفسهم. هذا ما أريد إخبارك به. لن تعود الأمة العربية آمنة ألا بالعلم والحرية. بالديمقراطية أن تترك الساحة لأهل الكفاءة، وليس أهل الثقة. . حين تصبح الحرية منهجا يدرس، ويرتفع شأن العلماء وتجد من يساند الأدباء والمفكرين. حين يعرف المواطن أن رئيس الجمهورية ما هو ألا موظف يعمل في خدمة الوطن وأن أحلامه

التي استصعبها هي في الحقيقة حقوقه المفروضة، وأن القوانين وضعت ليحترمها الجميع ربما ستتحسن الحياة هنا فيما عدا ذلك الوضع ميئوس منه يا سامر..!

جلست أفكر فيما قالت فاطمة. صحيح الثورات العربية لم تنجح، لكن اتهام الجميع بنشر الفوضى ليس اتهاما عادلا. دخل علينا زوجها رشيد عانقني وتحدثنا في عدة أمور عن الحياة. كان رشيد يعمل مدير لأحد الصحف الخاصة في تونس. أخذنا الحديث حول ظاهرة الاعتداءات الجنسية..!

توقف سامر عن الحديث وسألني..

- عمر ما رأيك في ظاهرة التحرش؟

- إنها ظاهرة لعينة يا سامر. لكنها موجودة منذ قديم الأزل في المجتمعات التي تحرم الحب ينتشر الانحلال..!

- أوافقك ولكن أي حب هذا الذي يجمع بين أخ وأخته..؟

- ماذا تقصد..؟

ضحك سامر ضحكته المريبة كعادته ثم قال

- أنت تفهم ماذا اقصد يا عمر. . ماذا لو كان المعتدي أب او أخ. . ؟

أردت أن اكذب ظنوني لكنه أكد لي برده البارد هذا ثم قال. .

هل سمعت عن قصة وردة. . ؟

- لا

- هذا كان جوابي حينما سألني رشيد عنها. وردة أو المرحومة وردة. . كانت تعيش في أسرة متوسطة في أقصى شرق تونس. . لها أخ وأخت يكبرهما بخمس وسبع سنوات علي الترتيب. كانت متفوقة دراسيا في المرحلة الابتدائية فلنقل إنها كانت ممتازة، وفي صيف ما قبل المرحلة الإعدادية استيقظت ورده في منتصف الليل وهي تصرخ كالمجنونة لم يفهم أحد سر صراخها، وهي لم تتحدث. فقط أكتفت بقول أن سر هذه الفزعة كابوس مرعب، ثم خلدت للنوم. . تغيرت الحالة النفسية لـ ورده، واعتاد أهلها علي نوبة صراخها بعد منتصف الليل. . مرت الأيام والسنين، وتجاوزت ورده المرحلة الإعدادية بصعوبة وبعلامات مقبولة. لاحظ أهلها ميلها للعزلة. كانت تجلس وحيدة في غرفتها لساعات

وساعات. . هذا مع إهمالها لمظهرها ونظافتها، بل وتعمدت إظهار هذه الفوضى. لم يفهم أحد سر ما تفعله ورده، لكنهم شعروا بشيء مريب. حاولوا بكل الطرق فهم ما يدور. وفي صباح فبراير الأسود. أستيقظ الجميع علي ضحكات وردة الهيسترية خارج من غرفة أخيها الأكبر. . وإذا بها تقف عارية تماما، وتقطع جميع أجزاء جسده وتضحك دون وعي. وبعد عامين ما بين التحقيقات حول قتلها لأخيها وقفت أمام القاضي في الجلسة الأخيرة وقالت. .

(الآن أنا واقفة أمامك متهمة في قضية قتل متعمد مع سبق الإصرار والترصد. أولا عليك أن تعدني بتنفيذ حكم الإعدام وألا عدمت نفسي دون الحاجة لقوانينك السخيفة. . ما حدث إنني ومنذ نضوج جسدي وأنا اشعر بشيء غريب يحدث. استيقظ صباحا لأجد نفسي غارقة في السائل المنوي. . سألت احد صديقتي فقالت إنها هرمونات الأنوثة. لم اقتنع بما قالته لكني لم أفكر في الأمر وتجاوزته وفي يوم كنت مرهقة نفسيا من هذا الأمر فلقد تطور الوضع أكثر من اللازم. . وفجأة إذا بأحد يفتح باب غرفتي في هدوء ويتسلل علي

أطراف قدميه. يقترب مني أكثر فأكثر. لم افهم ماذا يريد مني أخي في هذه الساعة. تركته يواصل القرب مني وفجأة ركع علي قدماي صحت في وجهه رغما عني، وسألته ماذا تفعل هنا. انتفض من مكانه، ثم قال بتوتر إنه يبحث عن محفظته فأتي إلى هنا عسي أن يجدها أسفل السرير، ولم يكن يريد إيقاظي، ثم اعتذر وخرج من الغرفة دون أن ينتظر مني كلمة واحدة. هذا ما قاله وهذا ما لم أصدقه، ولكني لم اصدق ظنوني. لم أنم هذه الليلة، ورحت للشرفة منتظرة سطوع الشمس. حتي أذهب للمدرسة. رأيته قبل في الصباح متوترا. سألته هل وجدت محفظتك فقال نعم نعم. ثم ذهب لغرفته سريعا. مرت ليالي الخوف والترقب، شيئان يحدثان كل ليلة إما انها إفرازات طبيعية بجسدي أو أنه. نعم أخي يتلذذ بجسدي. طردت الوسواس من عقلي، واقتنعت بفكرة الافرازات، وإن ما حدث كان بمحل الصدفة. مرت أيام وأيام، ولم يتغير الوضع. وفي يوم استيقظت في الثانية بعد منتصف الليل ذهبت للحمام وأنا في الطريق لغرفتي سمعت صوت غير مألوف خارج من غرفة أخي. من حسن حظي أنه لم يلاحظ إنني فتحت باب غرفته لأكتشف أنه يجلس أمام الحاسوب غارقا في مشاهدة فيلم إباحي. أفزعني ما رأيته. فمن المعروف عن

أخي أخلاقه الكريمة. .أغلقت الباب ودخلت غرفتي أفكر فيما حدث. وبعد ساعة انفتح باب غرفتي من جديد لتظهر أمامي الصورة كاملة أنه أخي. تركته يقترب ويقترب حتي أتاكد من ظنوني. رفع عني الجلباب ثم حاول نزع ملابسي الداخلية وبدء يمر بأصابعه علي خصري إلى الأسفل لم أتحمل بشاعة الموقف وقذارته. صرخت، وصرخت صرخات مدوية. جرى أخي في الظلام قبل أن يأتي أبي وأمي إلى غرفتي ليعود من خلفهم ويقف معهم ليسألوني ماذا حدث؟

صحت في وجوههم أنه يتحرش بي يا أمي. أنه يتحرش بي. لم يصدق أحد ما قلته لهم، بل واتهموني بالجنون. .لم يكتفوا بهذا بل وجاءوا بطبيب نفسي، لكنه أقسم إنني في كامل قواي العقلية وربما ما رأته في هذه الليلة الملعونة صحيحا، لكنهم كذبوا أيضا. لم يستح أخي من أفعاله. كان يجلس أمامي وهو في قمة شهوته، ويداعبني بكلمات قذرة. أصرخ في وجهه؛ ليقابلني هو الآخر باتهامي بالجنون والهلاوس، ويقسم أمام أبي أنه لم ينطق هذه الكلمات، فيصدقوا كعادتهم. مؤلم أن يكذبك الجميع، ويتهمونك بالجنون والانحراف العقلي والأخلاقي. مرت أيام وسنين صدقني لا أتذكر ليلة واحدة نمت فيها. كنت أنام في الصباح بعدما أخذت قرار بعدم مواصلة

تعليمي. .هل تعرف يا سيدي إنهم ظنوا أن هناك جن يمسني. هل تعرف أنهم جاءوا بشيخ؛ ليقرأ علي آيات من القرآن. . كل هذا وأكثر حتى الليلة الأخيرة. قررت أن اقتله بعد أن رأيته يتجسس علي وأنا ارتدي ملابسي. وقتها اتخذت قرارا بقتله دون رحمة. انتظرت حتى نام الجميع، ودخلت أنا غرفته وأنا عارية تماما. نظرت له ثم قلت له كفاك تسلل وتجسس أنا أيضا أريد قضاء ليلة ساخنة معك هل توافق . . لم يفكر طويلا حتى انقض علي جسدي بشهوته العفنة التي جعلته يفكر في أخته بهذا الفعل الشنيع الذي ترفضه كل الأديان. .تركته حتى يغرق أكثر فأكثر في جسدي، ثم أخرجت سكين كنت وضعته أسفل المنضدة. قلت له قبلني في فمي يا جميلي. تعمدت أن أنظر له وأنا أضع السكين في قلبه الملعون. نعم قتلته وأنا أنظر له، واستمتع بالموت وهو يعانقه مع طعناتي. طعنته أكثر من عشر طعانات في قلبه، وجعلت السكين يستمتع بدمائه الدنيئة، مثلما استمتع هو بجسدي. بصراحة حتى بعد أن أصبح جثة هامدة، لم أشف غليلي منه. .أشعلت سيجارة من علبته. كانت المرة الأولى التي أدخن فيها النيكوتين. ظللت انظر له وهو جثة عفنة غارق في دمائه. اقتربت منه وبدأت في قطع أطراف جسده بطريقة هيسترية. كنت غارقة في شهوة الانتقام،

لكنني كنت في كامل قواي العقلية. حتى انتهيت من قطع قضيبه، بعدها ضحكت ضحكات البهجة والانتصار. نعم مات الملعون الخسيس . قتلت الخنزير البشري الذي اعتدي علي ما حرمه الله عليه . قتلت أقذر وألعن صفة يمكن أن تكون في إنسان. هذا الغبي الوسخ القذر القرد الخنزير. مثال لكل ما هو قذر ورخيص ذلك الملعون ابن الشيطان. أقسم لك يا سيدي القاضي هذا ما حدث، ولو عاد الزمن لزرعت في قلبه السكين ألف مرة. أنا متهمة الآن بالقتل، ولكن لماذا لم تتهموا أبي وأمي بالإهمال، بسوء التربية بعدم الإنصات لي وبتكذيبي . أن يصبح العالم حولك باهت وينام عدوك تحت سقف واحد أن تحتمي فيمن يجيد زرع الخناجر في ظهرك، ويتفق الجميع علي أن يكذبوك رغم صدقك . انه شيء لا يحتمل . بكل شغف انتظر قرار الإعدام يا سيدي؛ لتنتهي مأساتي الأبدية، وحين أقف أمام الله سأخبره بكل شيء)

هذا ما قالته وردة في الجلسة الأخيرة . كانت آخر كلماتها قبل أن تقطع شريانها أمام الحضور . انتحرت وردة ضحية الانحياز الأسري والإهمال والتخلف . . !

ـ عمر ماذا بك . . ؟

سألني سامر بعد أن أنتهى من قصة وردة الجميلة والمحزنة

ـ أنا بخير. وماذا حدث بعد أن روى لك زوج أختك هذه القصة . . ؟

ـ لم يحدث شيء يذكر في خلال آخر ساعة لي هناك في تونس. فعدت لباريس في العاشرة مساءا. طلبت السيد رومان علي الهاتف لأخبره بوصولي فطلب مني الذهاب للمقهي الجديد، وإلقاء نظرة سريعة علي العمال هناك. بالفعل اتجهت مباشرة لهناك. كانت الساعة الثانية عشر، والشوارع هادئة. دخلت المقهي، وتابعت نظام العمل. لم يكن أحد من المديرين هناك. . رحت للجراج لانطلق بسيارتي نحو المنزل، وفجأة رأيت سيارة نيفين تقف في الجانب البعيد في نهاية الجراج. تعجبت فانا لم أرها بالداخل. اقتربت منها بعد أن شعرت بهزة غريبة تحدث لهيكل السيارة. رأيتها برفقة المدير المالي 'بيتر'. . نظرت لهما كانوا غارقين في شهوتهم، وقفت لثوان أحاول تكذيب ما رأيته. لكنه كان حقيقيا لا محالة. نعم نيفين تخون صديقي يوسف. . كان شيئا منطقيا فهي لم تحبه من الأساس، هي لم تكن تريده كانت تريدني أنا، وهذا لم يرده قلبي. . نظروا لحوي دون اهتمام. فتحت النافذة وقالت 'لم يصدقك يا سامر. صدقني لن يصدقك' ضحكت ورحلت

عنهما . كنت في مأزق حقيقي لا أعرف ماذا افعل. كانت ليلة وحشية حزينة. أقرر أن اتصل بيوسف واخبره بما حدث، وفي نفس اللحظة أرفض قراري خوفا من عواقب ما سيحدث بعد أن يعرف. بعد ساعتين من التفكير رن الهاتف ليقطع حبل أفكاري . .

- سامر . غدا سأعود لباريس في تمام الساعة الخامسة عصرا. أريد رؤيتك فورا

- أشتقت لك يا صديق . سأكون في انتظارك في المطار

قال بنبرة غامضة

- لا انتظرني عند متجر العم ماركو . سأنهي إجراءات العودة واذهب لهناك. إلى اللقاء . . !

لم يعطني فرصة للرد. أغلق الهاتف ووضعت أنا حدا لتفكيري فنمت في مكاني. استيقظت صباحا، وذهبت للمطعم في حدود الساعة الخامسة، ثم انطلقت صوب مرسيليا، وجلست منتظرا قدوم يوسف من المطار. كنت هادئا على غير عاداتي. لم أفكر فيما ينتظرني حتى إنني لم أحسم قراري في أمر نيفين. دقت الساعة السابعة

فوجدت يوسف برفقة نيفين، قادمين نحوي. وضعت أمام عيني كل علامات الاستفهام. ألم تستحِ نيفين من فعلتها. جلس يوسف أمامي، وبجانبه نيفين دون أن يلقي التحية. أشعل سيجارته وطلب القهوة ثم قال..

- اسمع يا سامر.. علمت بما حدث بالأمس لهذا طلبت رؤيتك علي الفور. أرجوك لا تقاطع حديث نيفين، واستمع جيدا لما ستقوله. اتفقنا..؟

- علي أي حال لم أنو أن أتحدث معك في هذا الأمر لكن. اتفقنا..!

استعدت نيفين للحديث بدمعة مصطنعة وبدأت..

- منذ اللحظة الأولى وأنا معجبة بك يا سامر. أعجبني غموضك وشخصيتك وحديثك عن الحب والحياة. حاولت أن ألفت انتباهك لكن احترمت رغبتك في الابتعاد عن العلاقات العاطفية بعدها كرست حياتي للعمل حفاظا علي مستقبلي، ومكانتي. فمن الحب ما قتل وأنا لم ولن اسمح أن يقتلني الحب. مرت الأيام، واستطاع يوسف أن يقتحم حياتي. أحببته سرا، فكنت أخاف من حساسية العلاقة، فهو صديقك الصدوق. ولكنه

عاهدني أن لا يحدث أي اضطراب في علاقتكم، وهذا ما لمسته في البداية. تزوجنا وأصبح يوسف الرجل الأوحد، والأجمل في حياتي. لاحظت نظراتك تلاحقني وأنا بجواره. هناك شيء يلوح في عيناك، كأنك تريد معاتبتي علي ما فعلته. حاولت تجنب لقاءك في غياب يوسف ولكن فشلت فطبيعة عملنا هذه الأيام تجبرنا دائما علي الاجتماع معا في مكان واحد. كنت أراهن أن شيء ما سيحدث في غياب يوسف وبالفعل صدقت ظنوني..!

نظرت نيفين إلى يوسف وواصلت..

- اتصل بي سامر أمس. ليطمئن علي كما قال في البداية، ثم طلب رؤيتي للحديث في موضوع ما حسب ما أمرته أنت يا يوسف. وافقت نظرا لجدية نبرته. طلبتك لأعرف لماذا لم تتصل بي وتخبرني أنت بالأمر، فوجدت هاتفك مغلقا..

قطعت حديث نيفين بعصبية وصحت في وجهها..

- هذا لم يحدث أنت تكذبين..!

صاح يوسف في وجهي لقد طلبت منك أن لا تقطع حديثها يا

- التقينا في المطعم الرئيسي.. بدأ في سؤاله عن الحياة معك يا يوسف، ثم طلب مني أن أبقى بجانبه خلال هذه الفترة. لم أفهم ماذا كان يقصد، فسألته فقال: إنه يريدني في حياته. صفعته على وجهه، ولعنته. فجأة دخل بيتر، ورآني وأنا ابكي في حضوره. أرتفع صوته بالسباب واللعنات، ثم رحل. منعت بيتر من قتله بعد أن اتهمني بالعهر والانحلال، وهددني بإفساد علاقتي بك. أقسم لك هذا ما حدث يا يوسف..!

قبل أن أرد علي كذبها طلب يوسف بيتر علي الهاتف، وسأله عما حدث بالأمس لينطبق حواره مع حوارها.. ضحكت بعد أن سمعت مكالمة بيتر ضحكة بصوت عالي دون مبرر ثم سألت..

- هل تصدقها يا يوسف؟

رد بنبرة حادة..

- أنت خائن يا سامر.. من الآن انس علاقتي بك. واغرب عن وجهي

وألا سأقتلك . . !

كنت أريد أن اخبره بالحقيقة، ولكن ما فائدة الحقيقة في عالم قواعده من الزيف، وما قيمة كلمة الحق في دواوين الكذب. قلت ليوسف أن كل ما قالته نيفين كذب يا رجل إنني رأيتها مع بيتر وهما يمارسون الجنس. اقسم لك هذا ما حدث وغدا ستعرف كل شيء. . رحلت عنهما متجها إلى البيت بعد أن أبلغت السيد رومان استقالتي من المطعم على الهاتف. كنت في حالة لا بأس بها. إنني محاط بالأغبياء والمنافقين والكاذبين يا عمر. . أب منافق. . أم رحلت لتتركني وحيدا في الصغر. حب لم يكتمل. وصديق غاب عني. تونس الخضراء في قلبي القائمة في حاضري. كان وجودي في باريس عقابا اخترته لنفسي منذ الصغر. عاقبت نفسي بعد أن عاقبتني الحياة. ضاقت الحياة في باريس بعد أن فقدت عملي وصديقي الوحيد. قرار واحد إذن . . 'العودة إلى تونس'

صمت سامر من جديد صمته المربك دائما. كانت الساعة العاشرة صباحا. بدأ أخيرا النعاس يغازلني من بعيد. ظننت انه انهى حديثه لكنه كان يخفي في جعبته أمورا أخرى. سألني كمحرر صحفي . .

- ألم يخذلك أصدقائك في يوم . . ؟

- وهل هناك منا من لم يتذوق طعم الخذلان . . انه أمر مفروغ منه كل منا لمس الخذلان بطريقة أو بأخرى. الخذلان يفسد مفهوم الثقة لديك . يجعل الناس متشابهين، تبني حولك سدودا وحواجز؛ لتحمي نفسك من الناس من خذلانهم ، وغدرهم . قد تقف لتنظر من ثقب صغير أملا في شخص جديد تثق به، ولكن تسقط في لحظة رغما عنك . فقلبك لم يشف بعد من حطامه . . كل منا أصابته نار الخذلان . وما اقسى نيران الخذلان . . !

واصل سامر حديثه دون أن يرد علي كلماتي . .

عدت إلى تونس بعد ما أصابتني الحياة بمخالبها في باريس . كانت أختي في انتظاري . . اتجهنا لمنزل العائلة . . كانت المرة الأولى التي يدخل أحد إلى هنا بعد وفاة أبي . هنا كانت طفولتي . جدران البيت مشقوقة بصرخاتي . لحظة سقوط أمي أمامي في طفولتي . ولازلت أتخيل المشهد بتفاصيله الموجعة . ابتسامتها ودفء عناقها . ودفعي بعيدا عنها؛ كي

أتجهز للمدرسة. أكانت أمي تبعدني عنها. أم إنها تبعد الموت عني، رغم كرهي لأبي ألا إنني اشتقت له. لصوته الخشن وصيحاته ونصائحه مهما حدث بيني وبينه من خلافات. فلقد كان السند الذي احتمي به سرا، وأرفضه في العلن. كنت اشعر بالاطمئنان في وجوده. هذا الذي لم يسمعني لمرة واحدة، ولم يفهمني بأي طريقة. كان يريد لي الخير، لكنه لم يفلح. أكنت الابن الضال الذي رفض سجية أبيه، أم كان هو الأب الكاذب الذي رفض أن يؤمن بصدق ابنه. كان زواج أبي من أمي خطئا فادحا، فطبيعة أمي الملائكية لا تناسب طبيعة أبي البشرية رغم حزنه عليها بعد وفاتها. ألا أن بكائه لم يشفع له عندي؛ كي أغفر كذبه ومبادئه المتلونة. رحمك الله يا أمي وسامحك الله يا أبي.

عشت حياة روتينية في تونس. حاولت أن أكون اجتماعيا. لم يفلح الحزن أن يكسرني هذه المرة. عملت في مصنع عمي الكبير الذي امتدحه أبي وأنا طفل، وسبه في غيابه. نصحتني أختي بالزواج من ابنته. كانت الفكرة مرفوضة تماما حتى اليوم الأول من معرض الكتاب المقيم في المكتبة العامة بتونس. كانت المكتبة هادئة تماما فالكل منشغل بما يحمله من أفكار وقصص في الكتب. حتى ضحك طفل في العاشرة من العمر التف الجميع ليشاهد صاحب هذه الضحكة. تابعت

الضحكة. صوت عميق ودافئ'سامر كف عن حركاتك الصبيانية' لم أميز الصوت، لكنه كان مألوفا بالنسبة لي. لم استطع رؤية صاحبة الصوت نظرا لازدحام المكان. جري الطفل نحو مقعدي وقال ببراءة 'خبئني يا عمو خبئني ستقتلني أمي' ضحكت ومسحت رأسه 'اهدأ يا حبيبي. . لا تخف، لن تقتلك أمك' اقتربت نحوي أمه واعتذرت. لم انظر إليها وهي تحدثني، كنت منشغلا بطفلها الجميل الذي يحمل نفس اسمي. نظرت لها أخيرا من باب الاحترام. كانت امرأة في منتصف الثلاثينات من العمر. جمالها مألوف، وقوامها متناسق، بشرتها البيضاء وشعرها البني وعيناها الزرقاء، صمت لثوان وأنا مندهشا فيما رأيت، ثم سألتها . .

ـ ليندا كيف حالك . . ؟

حدقت عيناها في عيناي ليصمت العالم احتراما وتقديرا للحظة سيدونها كتاب الصدف بكل خجل. كان لقاءا رائعا وصدفة غيرت الكثير والكثير مني. كانت المرة الأولى الذي يدق قلبي من جديد بعد أن غادرت عالمي في المرة الأولى. وحدها كانت تملك إيقاع قلبي ودقاته. وحدها كانت تتقن ترتيب كلماتي، وتفهم ما أخفي وراء صمتي. ظلت صامتة لدقائق، وهي تنظر لي في دهشة. لم تنطق.

فقط عانقتني وهي تتلعثم.

- اشتاقت لك يا سامر. اشتاقت لك يا سامر

بادلتها العناق، ونهلت من حضنها ما ضاع، بلهفة شوق عشرين عاما من الغياب. عدنا من حيث بدأنا في المكتبة. هنا التقينا للمرة الأولى، وها نحن نلتقي مجددا. لحظات وثواني أعادت الحياة في قلبي بعد سنين من الموت. بنفس غبائي وأنا طفل تصرف سامر أبنها وأبعدها عني وهو يطلب منها أن نخرج من المكتبة. ضحكت ليندا ثم سألتني هل عندك وقت لنحتسي القهوة معا. في الحقيقة كان جدول أعمالي مزدحما، ولكن دون تردد أغلقت الهاتف ووافقت على الفور. اتجهنا للشاطئ الذي جمعنا في الصغر. ونحن في الطريق لم نتحدث عن شيء يذكر. جلسنا على الطاولة وذهب سامر الصغير للعب مع الأطفال. كسرت حاجز الصمت فداعبتها..

- لم أكن أعرف أن اسمي مميز لهذا الحد الذي يجعلك تنادي ابنك باسمي..؟

ردت بتلقائية..

- كانت حجة مناسبة لأبرر مناداتي لزوجي باسمك. لم يكف قلبي

عن مناداتك يا سامر. أقسم لك فشلت كل الطرق كي أنساك. الذين قالوا 'البعيد عن العين. . بعيد عن القلب' كذبوا. . هناك أشخاص تبعدنا عنهم مسافات ومسافات وتصبح رؤيتهم أمرا مستحيلا، ولكننا في الحقيقة لا نري غيرهم مهما التقينا بغيرهم. . تصبح كل الوجوه متشابهة ومملة.

إنني لم اعتزل عشقي لك. كنت بجواري ومعي في كل شيء. رائحتك. عطرك. ابتسامتك. ضحكتك. صوتك. تفاصيلك. إن أحسست بوحدة أحضرت ذكرياتنا لتؤنسني، وحينما يقتلني الشوق لك، أعانقك في مخيلتي. حتى الذين قالوا 'الوقت كفيل بالنسيان' كذبوا ايضاً عشرون عاما تغير كل شيء في حياتي وحولي إلا عشقي لك لم يتغير، بل يزداد ليلة تلو الأخرى. . الوقت يفسد الانتظار ويقسي القلب، ويخفض درجات الحنين، لكنه فشل أمام عشقي لك. . أمام مخيلتي التي رفضت أن تذكر رجلا غيرك. . أمام عذرية قلبي الذي لم يفقده عذرية جسدي. كنت أخبئك عنهم، عن الناس، وأخاف أن تشي بي عيناي، حين يصل الحنين لأقصى درجاته. . !

أعادتني كلماتها للحياة . . لم اسألها عما حدث لزواجها وتركت لقلبي حق في التعبير عما يخبئه طيلة عشرين عاما من الغياب . .

- ليندا . . تغير كل شيء إلا صدق قلبك، كنت أظن أن النسيان سكن ذاكرتك، وافترش كل أطرافه علي قلبك . . هذا أنا يقتلني الشك والظنون منذ الصغر . . كذلك اتهموني بالبؤس

أنا لست بائسا، لكن هم من يجبروني علي البؤس بكذبهم ونفاقهم وغدرهم . . لن يفلحوا فيما يحاولون الوصول إليه اعرف أن يوما ما سينتهي هذا البؤس، سأبتسم واغني وارقص كما يحلو لي . . أنا انتظر الموت ولكن أؤمن أن هناك حياة طيبة تنتظرني . أنا لست كما يقولون عني، ورغم ذلك يقيني يزداد أن ليندا لازالت تنتظرني . . كنت أهمس لنفسي هذه الوحدة لن تطول، ستعود لتونس لتجد عروستك القديمة في انتظارك . . كنت أؤمن يوما ما سأحطم كل هذا البؤس وأداوي كل جراح قلبي، وأرسم حلما جديدا بعيدا عن حطامي . وها نحن التقينا من جديد يا ليندا وما أعظمه من لقاء . . !

- لم يغيرك الزمن يا سامر . . حتى بعد أن شاخت ملامحك . لازلت تحتفظ بنضرة قلبك وطفولته . . !

سألتها عن الحياة معها، وماذا حدث لمستقبلها . قالت إن في بداية زواجها بالسيد فرحات كانت تشعر بتعاسة بالغة، ولكن مع الاعتيادية تأقلمت مع الوضع أشادت بشخصية فرحات، وقالت إنه ودود جدا، لم تحبه رغم محاولاتها الكثيرة، لكنها اعتادت عليه. هو يختلف عنها في كل شيء، حتى في اهتماماته وأفكاره. اعرف أن هناك امرأة تستوطن قلبه. وان زواجنا كان لإرضاء الأهل. فمثلما رفضوني أهلها، رفضوا أهله الفتاة التي كان يريدها . صمت للحظات ثم قالت بحزن وهي تضحك "تعرف أن هناك من يتزوج بشخص لم يكن يتمنى الحياة معه وغيره متزوج بشخص آخر يفكر في غيره وهكذا . أنها الحياة لا تؤمن دائما بالحب" سألتها عن أبنائها فقالت إن الله رزقها ب'شاهندة' ثم ب'سامر' ضحكت من جديد وواصلت: شاهندة هي الفتاة التي أحبها فرحات ولم يتزوجها . فكان وفيا في عشقه حتى سمى بنته الوحيدة بهذا الأسم. إنها الخيانة المشروعة يا سامر. فرحات لم يمانع من تسميتي لابنه 'سامر' كان في داخله يعرف حقيقة الأمر لهذا ابتلعت الحياة معه، وابتلعها معي.

سألتني عن حياتي فأخبرتها عن الأشياء الهامة فقط، وقبل أن

يسرقنا الوقت سرقتني هي من نفسي فقالت'سامر اشتاق لرؤية ليندا' ابتسمت وواصلت 'أعرف انك لم تتزوج، ولكن هذا طلبي الوحيد. عش يا سامر تزوج واقضي ما تبقي من عمرك في استقرار فلنعتبر لقاءنا هذا بداية جديدة لك، هززت رأسي بالموافقة. أتفقنا علي المقابلات المتبادلة كلما سنحت الفرصة.

اتجهت للمنزل وأنا في حيرة بعد أن قالت كلماتها الأخيرة 'سامر يشبهك في كل شيء' في أي شيء كانت تقصد. .هل هذا أمر يستحق أن يملئني سعادة أم يجعلني أبكي بمرارة. . لا أريد أن يشبهني أحد. أنا رجل يائس وحزين لا أصلح للحياة. . بالفعل تزوجت ابنة عمي بعد شهر من لقائنا كانت تحبني جدا، ولطالما كانت تحلم بزواجي منها. محظوظون هؤلاء الذين يعطيهم القدر ما يتمنوا. .تأقلمت مع الحياة بعد أن رزقني الله بابنتي 'ليندا' حققت أمنية حبيبتي وسميتها باسمها كما وعدتها. . !

***

صمت سامر من جديد. مرّ الوقت، وأصبحت الشمس مكتملة

نظر إليّ ثم قال . .

- هل الإنسان مخير أم مسير يا عمر . . ؟

- مسير في بعض الأشياء ومخير في الاخري

- في أي شيء مخير . . ؟

- في اختيار رفقائه مثلا

- وماذا عن النهايات . . ؟

- إن الله يجعلك تختار الشخص الذي تريده . . وتبقي النهاية حسابات أخرى لا يعلم إلا الله . . !

- إذن هو المسئول عن النهاية . . ؟

- ربما . . لكن أنت أيضا مسئول عنها . فليس من المنطقي أن تشاهد حياتك وأنت مكتوف الأيدي لإيمانك أن الله سيتكفل بالنهاية . فلنفترض مثلا أن هناك حرب وأنت قائدها . فهل من المعقول أن تقف دون أن تتقدم خطوة نحو النصر، وتقول 'الله سيتكفل بالمعركة' أنه أمر خرافي لا يصدق . نحن نحاول أن نصل بالنهاية التي نريدها، ونسعى علي ذلك، ثم نترك النهاية لله أي كانت إرادته . . !

- هل تتذكر الحديث الأخير لمؤسس شركة نوكيا في مؤتمر بيع الشركة

لشركة مايكروسوفت..؟

- لا

- لقد قال 'لم نفعل أي خطأ. لكتنا خسرنا'..هل هناك تفسير لهذه النهاية..؟

- فلنكن منصفين يا سامر..الأمر هنا مختلف، لقد عرض علي الشركة أنظمة تشغيل 'اندرويد' وقتها رفضته الشركة، واحتضنته شركة 'سامسونج' ومن هنا سقطت مبيعات 'نوكيا' بعد أن أثبتت أنظمة 'الاندرويد'جودتها وكفاءتها..إذن أنهم لم يرتكبوا خطئا..لكنهم اختاروا القرار الخاطئ..ولنتفق أن هناك نهايات لا ترضينا، ولكن لا تدري 'لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا'

ابتسم سامر ثم استفزني بسؤاله..

- يعجبني استشهادك بالآيات القرآنية، رغم انك تشرب الخمر وتدخن النيكوتين، وربما تمارس الجنس أيضا؟

- أولا عليك أن تعرف أن علاقتي بالله أمر لا يخص أحدا. ثانيا أعلم إنني ارتكب ذنوبا وأخطاءا، ولكن هل بعث عصر الأنبياء من جديد. بالطبع لا أنا بشر امتلك صفات ومميزات ترضي الله

وأملك عيوبا تعجبه هكذا خلقنا جميعا. لنا ما لنا وعلينا ما علينا. المشكلة ليست في من هم مثلي. المشكلة فيمن يظهرون أمامنا بقناع الفضيلة والتدين، وهم يمارسون أقظع وأبشع الصفات الخسيسة في السر. يشعرونك أن الله اختصهم عن دونهم من الناس بالحكمة والموعظة، وأن غيرهم مجرد كائنات خلقت لتستمع لهم. في الجانب الآخر أولئك الذين لا يعتبرون لله وجودا، يتحدثون ويفعلون كل ما يبيح لهم وما لا يبيح، ثم يتلونون ويحاولون إقناعك بما يفعلون. يا سامر لا مانع أن تشاهد شابا يضع في يده اليسرى التبغ، وفي اليمنى مصحفا أو صليبا، لكن المؤسف أن تجد من يظهر لك كل تدينه، ويسخر مما تفعل ويحرمه، وهو يحمل في خزائنه الخمر، وفي عقله العهر. أو من يظهر لك كل القبح، ثم يبرر لك أفعاله انه لا يؤمن بالخالق أو غيره. دعنا من هذه القضية. ماذا حدث بعد زواجك من ابنة عمك؟

ـ فلتقرأ الصفحة رقم ١٥ من المذكرة.

***

أحضرت المذكرة من جديد ثم بدأت..

"الصفحة الخامسة عشر"

(ما قبل العزلة)

البلدة أصبحت لا تطاق. كلما اقتربت منها وعاهدت نفسي بالتصالح معها. جلست على جسدي النحيل لتضع بين ضلوعي السهام المسممة. أقف هناك بحثا عن اللون الأحمر لون الورد بعطره الصادق. فيتسلل الوجع بداخلي من لون الدماء ورائحة الموت. أمر سخيف أن أبحث عن الحياة بين دفاتر الموت، والورد وسط هذا الحطام، والحرية بين قيود المجتمع. اخبرهم يا الله. اخبرهم أن هناك من يبحث عن السلام. بعيدا عن عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم الغبية المتطرفة. اخبرهم يا إلهي. أن هناك من يبحث عن الحياة رغما عن هذا الحطام..!

انتهيت منها وكعادته بدء في السرد..

- ابتسمت الحياة وبدأت في التأقلم عليها. يبدأ اليوم بالعمل وينتهي بالجلوس في المقهى مع معارفي. كنت اعلم إنني زوج سيء، وعلي يقين أن في نفس زوجتي شيء من الحزن، وكلما واجهتها بسوئي كانت تضحك وتقول 'لا عليك يا حبيبي. أنا اقدر

مشاغلك اليومية، وتطبع قبلة علي خدي ثم تعد العشاء وتبدأ في محاولة بائسة منها للحديث معي حول الأمور التي تشغل بالي' لقد أحبتني 'مريم' حبا صادقا، وهذا كان عبئا علي كتفي لم أتحمله، رغم محاولاتي لمبادلتها العشق. بعد فترة مرضت مريم بسرطان الثدي فألزمني ذلك المنزل لمراعاتها. في هذا الوقت كانت علاقتي بليندا قوية، ولكن مع مرض زوجتي لم تتح لنا الظروف فرصة للقاء. كنت أعمل بمهام المنزل مع رعاية مريم وليندا الصغيرة. حتى استعادت مريم عافيتها ونجح العلاج في قتل السرطان الخبيث، أي مرض هذا الذي يصمد أمام صبرك وإيمانك يا مريم. والله إن السرطان كان يخجل وينكسر أمام صمودها. عادت من الجديد الحياة لمجراها الطبيعي، وأصبحت مريم أكثر قوة ونشاطا وحيوية، وكبرت أبنتنا ليندا.

ظننت وقتها أن الحياة ستسير بشكل طبيعي وهادئ حتى يختارني الموت. وفي صباح يوم من أيام يوليو، وفي السادسة صباحا جاءتني مكالمة هاتفية من باريس..

- الو..

- أستاذ سامر..؟

ـ نعم

ـ هل تعرف السيدة 'ليندا المحرزي'

ـ نعم نعم . ماذا حدث . . ؟

ـ اطمئن أنا فرحات زوجها . أريد رؤيتك فورا

ـ ماذا حدث . . ؟

ـ حاول أن لا تتأخر . حجزت لك تذكرة علي متن الطائرة رقم ٧٣٩٠٢ ستغادر تونس بعد ساعتين من الآن. أرجوك لا تتأخر يا سيدي . ستجدني في انتظارك في ساحة رقم ٣. إلى اللقاء . . !

أغلق الهاتف وكان التوتر يسيطر علي صوته. أيقظت مريم من نومها وأخبرتها، فنهضت لتعد الإفطار. أظن يومها إنني جهزت نفسي للسفر في ظرف نصف ساعة. ثم اتجهت للمطار. وصلت باريس في العاشرة، واتجهت مباشرة لساحة الانتظار رقم ٣ كما قال فرحات . كان يعرفني فاتجه نحوي. تبادلنا التحية ثم اتجهنا للسيارة. سألته ماذا حدث فقال: إن ليندا كانت في إجازة لحضور فعاليات مهرجان التسوق السنوي، وفجأة شعرت بتعب شديد ونغزة في قلبها. طلبتني علي الهاتف، وقالت إنها محجوزة في أحد مراكز علاج القلب

في باريس. بكى فرحات ثم استكمل..

لقد قال الأطباء أن حالتها مستعصية. طلبت منهم توفير كل ما يلزمها من عناية طبية مهما كانت التكاليف، فقالوا أن حالاتها متأخرة ولن ينجح الأطباء في علاجها مهما حدث وإن أيامها في الحياة معدودة. طلبت مني ليندا إخبارك أنها تريد رؤيتك قبل أن يعانقها الموت!

ظل فرحات يبكي وهو يقود سيارته. كان حديثه معي قاتل. تاهت كل الكلمات في ذهني. اتجهنا للمركز، فانتظرني فرحات بالخارج ودخلت غرفة ليندا. كانت تستلقي علي السرير مرتدية ثياب المرضى البيضاء. ملامحها باهتة جدا علي غير عاداتها، ظهر عليها المرض والتعب. شفتاها خشنة كأنها لم تبتل بالمياه منذ شهر. كانت نائمة والأجهزة حولها تبعث صوتا الكترونيا غبيا. تحسست ملامحها بهدوء. أفاقت ونظرت نحوي. أخفيت دموعي بسرعة ثم داعبتها..

- مجنونة أنت. لكنك تجيدين التمثيل والله لو طلبتي مني أن أسافر معك إلى باريس ما تأخرت. هي انهضي أنا معك..!

ابتسمت وتنهدت ثم قالت بصوت يغلب علية الألم..

- بالأمس حرمتني منك الحياة . . واليوم سيحرمني منك الموت يا سامر

بدأت افقد أعصابي وكنت علي وشك الانهيار

- لا يا ليندا . . لن يأخذك الموت مني أبدا. أطمئني سيصبح كل شئ علي ما يرام.

ارتعشت ليندا ثم أخذت بيدي ووضعتها أسفل رأسها . .

- أريد أن يعانقني الموت وأنا علي صدرك يا سامر

بدأت في البكاء لم أتحمل كلماتها . . هذه الجميلة التي أبعدتني عنها الحياة والمسافات يختارها الموت بعد أن التقينا مجددا. يا لقسوة القدر. يا لقسوة القدر . . نمت بجوارها ووضعت رأسها علي صدري وأنا اغني لها أغنيتها المفضلة . .

"عصفور طل من الشباك قالي يا ليندا . .خبيني عندك خبيني داخلك يا ليندا . . قالتله أنت من وين. قالي من حدود السما . قالتله جي من وين؟ قالي بيت الجيران . . قالتله خايف من مين؟ قالي من القفص هربان. قالتله ريشاتك وين؟ قالي فضفضها الزمن. نزلت علي خده دمعة . وجناحاته ، وقال بدي امشي وما في" ضحكت ليندا

وقالت: لازلت تغير كلمات الأغاني لأجلي

عانقتها وأنا أجهش باكيا

- أنا أحبك يا ليندا. احبك جدا

- وأنا أيضا أحبك يا سامر. الحياة ليست منصفة يا حبيبي. ربما سنلتقي في الجنة..!

- لا سنبقي معا هنا

- لن نبقي معا علي الأرض يا سامر. إنه الموت لا مفر. سأخبرك بسر أخير. أنا لم ألد بهذا المرض. بعد أن رحلت عنك، ووافقت علي زواجي من فرحات عشت أياما مأساوية، وانتقلت بعدها للعيادات لأعرف سبب نغزات قلبي المستمرة. علمت أن هناك ثقب في القلب. حذرني الأطباء من إهماله، لكنني لم استمع لهم، وفضلت الموت علي غيابك. وها هو الآن يختارني الموت بعد أن نلتقي مجددا. أحبك يا سامر. أحبك جدا يا سامر. قبلتني لتمتزج دموعها بمدامعي. ارتجفت وهي تتأوي بين ذراعي.

- ليندا. أنا هنا إياكِ أن ترحلي عني هذه المرة أرجوك يا ليندا تمالكي.

أنت الأمل الأخير يا ليندا أنت الأمل الأخير يا حبيبتي. تمالكي رجاءا يا حبيبتي. لأجلي لأجل حياتنا معا..!

انعدم النبض، وبردت حرارة جسدها المنهك. وضعت رأسي علي صدرها لأخيب ظنوني، صرخت وأنا اسمع إشارات الأجهزة الالكترونية وهي تصفر باستهجان؛ لتؤكد لي ظنوني. ماتت ليندا. رحلت ليندا من جديد..هذه المرة الأخيرة والأبدية..دخل فرحات وهو يبكي بعد أن سمع صرخاتي. مسحت علي رأسها المسحة الأخيرة، وخرجت من العيادة وأنا في حالة صمت. إنه القدر من جديد بلحظاته ومواقفه الصعبة..استأجرت غرفة في احد فنادق باريس، واتصلت بفاطمة أختي وطلبت منها أن تأتي إليّ هنا غدا، مع إحضارها لمريم، وابنتي ليندا..وافقت وقالت ستأتي غدا في الصباح. صليت الي الله وبدأت ابتهل في الدعاء..

"هل تسمعني؟ أنا عبدك الفقير؟هل تعرفني؟ لماذا خلق الوجع..؟ لماذا خلق الحزن؟ لماذا اختار الموت أحباءنا؟ من المسئول عن أوجاعنا وأحزاننا؟ لماذا تأتي لنا الحياة بكل ما هو قبيح وسيء، وتبخل

علينا بكل ما هو جميل وطيب؟ منذ طفولتي والحياة تلهوا بي، لقد أخبرت عبادك أن الحياة يسر وعسر؟ لماذا شحيحة هي الحياة باليسر وبخيلة بالعسر. لقد اختار الموت أحبائي، واختار الكذب والنفاق أصدقائي، وسكن الحزن والبؤس وجداني. أي جريمة هذه التي أرتكبتها لأعاقب عليها بهذا الحد. هل تعاقبني علي ذنب حواء. هل تعاقبني علي خطايا غيري. .لقد قالوا إن من صفاتك العدل. وأين العدل الآن يا عادل. أين الحياة التي وعدتنا بها. عزيزي الله. أنا آسف"

كانت ليلة وحشية ظللت مستيقظا حتى صباح اليوم التالي. .جاءت مريم وفاطمة والصغيرة ليندا. .خرجت لساحة الإفطار، وجلست أمامي فاطمة ومريم وعلي قدماي كانت تجلس ليندا تلعب في لحيتي الكثيفة. .

- "مريم. .أنت أم وزوجة رائعة. لكنني رخو لا استحق الحياة معك. . لو إنني طلبت منك أن تضعي سم في كأس النبيذ لرفضتي هذا. . أنا اعرف واقدر عشقك لي، ولكن في الحياة من يحبونا أكثر

مما نستحق وهذا أنت . أنا رجل أربعيني العمر، ولكن لازلت سجين طفولتي، ولازلت أشتاق وأحن للماضي حتى، وإن كان دفين التراب . هذه الحقيقة أنا عاجز عن التحرر حتى من نفسي، ومن أفكاري ومبادئي . انك تقدمين لي كل سبل الحياة، وهذا يشعرني دائما بالذنب تجاه نفسي وتجاهك . إن أفعالك وتحملك للحظات جنوني وبطشي وبؤسي يشعرني بالامتنان نحوك . إنك تقدمين لي كل شيء في سبيل إسعادي وإرضائي، وأنا أقدم لك ضحكة باهتة وقسوة في الرد وإهمالا لمشاعرك، واهتماماتك. صدقيني حتى هذه الأفعال الشنيعة الباردة تكلفني مجهود ومجهود لأفعلها . إنني فقط أريد الصمت أريد أن اجلس على كرسي المتحرك، واصمت لمدة طويلة . عسى أن أفهم ما أصابني . إنني منقلب المزاج بطريقة تجعلني أتمنى دائما أن أحقن نفسي بحقنة هواء لأتخلص من هذا الجحيم . أنا غير قادر على استيعاب حتى ابسط الأشياء التافهة . مريم أنا ارفض الحياة بكل ما تحمله الكلمة من رفض وكره وقسوة . أرفض قوانينها وأحكامها وأرفض الظلم، ووجودي معك ظلم فاضح . لن أغفره لنفسي . أنت جميلة تشبهين نساء الجنة، صادقة وصابرة وأصيلة، كضحكة طفلة في مأتم وأنا

ولد مشاغب يحب الفضائل، لكنه يقدر ويفعل الرذائل. . هذا أنا وهذه أنت، لن نستطيع تحمل الحياة معا. هذا الصفاء في وجدانك يعري قبح وسوء أفكاري. ليتك هنا منذ زمن قبل أن يغزوني الحزن ويمشش في عتمتي البؤس والفوضى. .هذه ليست مشكلتك، لكنها مشكلتي أنا، حماقاتي أنا وأفكاري أنا. سأنعزل عن الحياة يا مريم، سأنعزل حتى يذكرني الموت في دفاتره. صدقيني حاولت التأقلم والتعايش في هذا المجتمع، لكن فشلت فشلا ذريعا. اعذريني يا مريم. .لن أوصيك علي ليندا أنت أم صالحة ستعتني بها جيدا. أنا اعرف هذا. . ابتسمي وغني وارقصي إياكِ أن تفقدي شغفك للحياة ويسيطر الاكتئاب علي حياتك. . إياك أن تكوني نسخة مني يا مريم"

بكت مريم رغم ابتسامتها المرسومة. نظرت لابنتي ليندا ثم قلت لها وليندا تنظر لي ببراءة. .

"حاولي استيعاب كلماتي يا ابنتي. .أنا آسف علي وجودك هنا. .ستكبرين وتبدأ الحياة بضخ سمومها في وريدك. كوني مثل أمك شامخة وقوية. .حافظي علي قيمتك وأعطي لنفسك كل الاهتمام والحب. .لا تسمحي للحب أن يكسرك أو يثني ظهرك وشموخك.

وإن لم يجعلك الحب تتمنين الحياة أكثر فأكثر. فلا داعي له. بين الحرية والانحلال خط خفيف، كوني متزنة في حريتك ولا تنسي الله أبدا.

.. الأصدقاء ليس بإعدادهم إنما بأكثرهم صدقا ووفاء لك.. كوني طبيعية. إياك أن تهزمك الحياة ويغريك النفاق والكذب.. إن طرق اللوع والتلون عديدة، فاسلكي طريق الحق والصدق حتى وإن كنت وحيدة.. الجميلة هي من تهتم بعقلها وأنوثتها معا. مساحيق التجميل للنساء، ولكن مساحيق التجميل والموسيقي والكتب والموهبة للفاتنات.. كوني فاتنة لنفسك أنت تستحقين هذا. العهر عهر الفكر والعنوسة شماعة يخترعنها الفاشلات في الحياة.. العنوسة الحقيقة أن تكوني بلا علم، بلا ثقافة، بلا وعي وفكر، بلا روح وكيان وشخصية مستقلة. تحترم ذاتها قبل أن يحترمها الجميع. إلى اللقاء يا صغيرتي"

أخذت الحقيبة بعد أن ودعتهما.. همست مريم في أذني "كن بخير لأجل ابنتك" شعرت بثقل كلماتها فرددت وأنا أعانقها "سأكون بخير لأجل ابنتي ولأجلك يا مريم" رحت للغرفة واتجهت بعدها لمراسم دفن "ليندا".

قطعت حديث سامر قبل أن يكمل ماذا حدث في مراسم الدفن وسألته . .

ـ لماذا دفنت ليندا في باريس . . ؟

قال بحزم . .

ـ لقد كانت وصيتها أن تدفن في المكان الذي تموت في . . هكذا ظنوا إنها تقصد الأرض بذاتها، لكن في الحقيقة كانت تتمني أن تدفن علي صدري هذا المكان الذي تمنت مسبقا من الله أن تموت علية . . !

كانت علاقة سامر بليندا عميقة بطريقة لا يستوعبها أحد . . رغم المسافات والحياة والبعد، ظل الحب رغم كل شيء . ويبقي الحب . . !

استكمل سامر حديثه . .

ـ كانت جنازتها مهيبة . قليلون من حضروا من الناس وأعداد غفيرة من الطيور والقطط حزنا علي وفاتها . ليندا غابت بين طبقات التراب، وبقيت ساكنة في قلوب أحبائها . جلست علي قبرها بعد أن رحل الجميع وسألتها . .

"ليندا يا سيدة النساء بعد أمي. يا شجرة الرمان. يا بنت الصدق يا أجمل من داس علي الأرض. اختارتك الحياة مني في المرة الأولى، ويختارك الموت مني في المرة الثانية، وكأن الحرمان خلق لنا وحدنا. لن يعيق الموت وجودي بجوارك، لن ينجح في إبعادي عنك. سأبقي هنا لأراعي بيتك الصغير، وأضع علية الورد البنفسجي. لطالما كنت تتغنين بجمال اللون البنفسجي. لن أغيب عنك مهما حدث سأبقي هنا حتى يبتلعني الموت، وأدفن بجوارك يا حبيبتي"

* * *

- هل تريد رؤية قبر ليندا..؟

اقترب عقرب الساعة من منتصف النهار. بدأ النوم يسيطر علي جسدي. وأفقت ورحت معه أخيرا. اقتربنا من القبر فهمس سامر في أذني "إياك أن ترفع صوتك فليندا نائمة الآن" بدأ الخوف يسكن قلبي من سامر تغيرت ملامحه تماما، كذلك نبرة صوته وتصرفاته كأنني مع شخص آخر. لمس قبرها بيدي ثم ضحك بهدوء وقال الم أخبرك أنها نائمة..

"ليندا حبيبتي. معي ضيف انه دكتور عمر. حدثته عنك

كثيرا، هو أيضا يحبك ويحترمك"

نظر إلي سامر وعيناه محدقة. .

- انتهت الجلسة يا دكتور. . أرحل أرحل، ولا تعود إلى هنا أبدا.

سنلتقي إن أراد القدر. . إلى اللقاء. . !

وضع رأسه علي قبرها وظل يبكي. رحلت بهدوء وعدت لمنزلي بعد ليلة شاقة ومرهقة. . !

* * *

الفصل الرابع..

القدر يقود من يتبعه..ويجر من يقاومه

الفيلسوف اليوناني / بلوتارخ

صوت يهمس في أذني إنها رائعة. صراع مستمر بين رغبتي في الحياة معها وبين البقاء في عزلتي. في قانون العزلة. حين تنعزل عن العالم.. تفقد لذة الاشتياق.. وتغيب عنك مرارة الانتظار. تتشابه الوجوه، وتتساوي مكانة من حولك. تعجز عن ادارك الزمن، تبقي عقارب الساعة لا قيمة لها. تتحول علاقاتك الاجتماعية لسراب، وتفقد القدرة علي البقاء في حياة أحد حين يتحول حطام قلبك لانكسار روحك، وتبقي ابتسامتك مرسومة علي وجهك الشاحب. تماما كالصور القديمة المعلقة علي جدران غرفتك الهشة. فلا قيمة للحياة. فلا أمر يستحق المجازفة لأجله. هنا فقط تدرك حقيقة الأشياء التافهة التي تفاخرت بمجدها وعظماتها يوما ما.. هنا فقط تدرك أن كل شيء وارد.. كل شيء جائز. وإن الموت هو الحقيقة الكاملة والمؤكدة في هذا الكون.. هذا ما كنت أشعر به ولكنها أيضا كانت تعرف جيدا. كيف تغريني للحياة معها. ديرا هذه الجميلة

البيضاء، بنت العشرين، تعرف كل ما هو جيد لإرضائي. لم أعد أشعر بعتمة عزلتي في حضورها. إنها تضع وردة في أرضي، ثم ترحل لتترك عبيرها يفسد هواء الذكريات. إنني كملك لم أعد أشعر براحة في مملكتي، وإنه أمر لو تعلمون عظيم أن تهتز هيبة الملك في عزلته. كانت ديرا تجيد رمي ورد التوليب من نافذتي، فاستيقظ لأجد أمامي حقولا من الورد والرسائل الغرامية. بعد محاضرة سامر الأخيرة أعلنت عن وقوف الجلسات لفترة طويلة والاكتفاء بالمحادثات الالكترونية فقط. عام كامل مر من تاريخ آخر جلسة تغير كل شيء، كعادة الحياة معي ترفض استقراري في مكان واحد أو طريق واحد. تريدني دائما التنقل بين أعماق الواقع، واكتشاف كل ما هو حقيقي وصادق حتى، وإن كان قاسيا. البشر عموما يرفضون مواجهة الواقع والاعتراف بالحقيقة. هذا ما نتج عنه الجهل والفقر والكبت. سمعت كثير من القصص المؤلمة أثناء هذه الفترة. تأثرت وبكيت ثم تعلمت. أصبحت علاقاتي مع الجميع سطحية جدا، عدا صديقي مصطفى الذي اضطر للسفر إلى مصر والاستقرار هناك، ورغم ما تبعد بيننا من مسافات ومشاغل الحياة، بقي بجواري ودعمني بشكل كبير إلى أن حد وصلت لما أنا عليه الآن من نجاحات واستقرار عملي ونفسي. بالمناسبة

"اللعنة كل اللعنة علي المسافات" . عن أمير صديقي الأول. فلقد انتهت علاقتنا كما كنت أتوقع بعد عدة مواقف. لم ينصفني فيها. علي سبيل المثال علاقته القوية لورين وحضور حفل زفافها كان لأمير في مكانة خاصة بقلبي وحده كنت أعطي له كل وقتي، واهتماماتي وأغمض عيني حد الثقة العمياء في وجوده. كان السند والعون الذي طالما لجأت له في سقوطي وانهزامي تأثرت قليلا بقطع علاقتي بأمير واكتفيت بأسباب سطحية انهي بها الحديث حول هذه النقطة حينما يسألني احد عنه، وتبقي بيني وبينه الأسباب الحقيقية التي لا يعلمها غيرنا أنا وهو فقط. أما عن ديرا فأصبحت علاقتي بها قوية بشكل كبير. كانت تسمعني أثناء نوبات الحنين والغضب والبؤس. تعمدت وقتها أن أحدد إطار علاقتنا، ونكتفي بالصداقة لا أكثر. ديرا أيضا لم تسلم من الحياة، لكنها كانت أقوى من أن يكسرها الحب أو المجتمع. هذا ما جذبني لها أكثر. نعم كانت محطمة تماما، فبين علاقات عابرة لم تجنِ منها سوى الحزن وبين خيبات وأحلام محطمة عرفت تماما ماذا يعني الحزن والوجع. لهذه الأسباب اطمئن قلبي لوجودها حتى، ولو علي سبيل الصداقة "الموجوعون لا يوجعون أحدا". صدور الطبعة الخامسة عشر من كتابي كان سببا

كافيا للامبالاتي حيال الأشياء التي تحزني، أو ربما لم يعد عندي وقت للتفكير بها "سلاما للوجع الأول الذي بعده لم أعد أشعر بوجع" . الحياة هنا هادئة بعد أن تصل لقمة هدوئك النفسي ستعرف أن الحياة زاهدة وطيبة مع من لا يبالي بها. ستكتشف حقيقة الأشياء العظيمة التي كانت تؤلمك في الماضي وما هي ألا مجرد أشياء تافهة هشة، لكنك كنت تعظم في حزنك. التصيب شماعة للجبناء والضعفاء والذين لم يستطيعوا تجاوز العقبات. إنها الحياة تقدم لك الاختبارات أولا؛ لتتعلم في النهاية. أغلقت دائرتي عند هذا الحد. تزوجت أورين من باولو، وغاب أمير، وبقى مصطفى رغم لعنة المسافات، وجاءت ديرا. حاولت قدر المستطاع تجنب الصدمات كان عام للهدنة أو ربما عام لتسوية الحسابات بيني وبين القدر. أنا أحاول تجنبه وهو يصر دائما علي استفزازي. أصبحت شخصا يعاني من انفصام داخلي، يختفيان طيلة النهار ويظهران معا. بعد منتصف الليل. الأول شخص مستقر وهادئ يرفض الحديث عن الماضي وعن أوجاعه، والآخر شخص يبني أسوارا عالية ليحافظ علي ماض، كأنه سجين يرفض من سجانه إطلاق صراحة. يبدأ الصراع مع الثانية عشر مساءا، وتبدأ ملحمة بين النور والظلام. هذا الذي ينظر دائما

للمستقبل وللغد في مواجهة الآخر الذي يرفض حتى التفكير في أي شيء سوى معانقة خيبانه، وخذلانه وحطامه. في سكون، ثم يذهب للنوم. تبدأ المعركة بأسماء الذين رحلوا عنا دون مبرر واضح، فأخضع له وللماضي وهذا الذي يرفض انهزاميتي أمام ما قد مضى يعرض أمامي لحظات نجاحي وتقدمي وتفاصيل حياتي الجديدة. يصرخ الآخر "افهم.. أنت وحيد وحيد جدا كوردة في البرية" فيصرخ الآخر "لا تنصت له ربما تكون وحيدا. لكنك حر حر، نفسك كطير يحلق في السماء" تشتد حمية المعركة فتظهر أمامي لحظات الماضي الجميلة ويصرخ "هنا كنت رائعا. هنا كنت سعيدا جدا. هنا شعرت بالأمان. هنا عانقتك الحياة بلذتها ومتعتها" يبتسم الآخر بخبث ويصفع ذكرياتي بالخيبات ليصرخ "وما الفائدة من اللحظات الجميلة إن أزالت الستار بعدها عن حقيقتهم. تذكر لحظات خذلانهم لك. تلك اللحظات التي تركوك تبكي وحيدا ورحلوا عنك دون أن يهتموا بما سيحدث لك في غيابهم كمحتل قتل اهلك أمام عينك ثم ابتسم ولم يقتلك ليتركك للموت مرتين في لحظة واحدة. سخروا واستخفوا بوجعك وحزنك ثم اتهموك بالجنون والبؤس. تذكر ما عاهدوك علية وكذبوا بوحشية ونفاق. وما أعطيتهم ثقتك حتي

خانوا . . إنهم لا يريدون لك الخير يا أنا . إنهم أوغاد وحمقى لا رحمة في قلوبهم . الذين عاهدونا وخذلونا ، والذين رحلوا ونحن نرتجف حزنا . الذين قدموا لنا السم في وعاء العسل . والذين زرعوا السهام المسمومة في قلوبنا . . أولئك الذين استغلوا نقاط ضعفنا بمهارة . . والذين تسببوا لنا في نوبات الحزن والبؤس والاكتئاب . . الذين عاهدونا بالبقاء وكانوا أول الراحلين . . والذين أذابونا في مرارة الانتظار دون أمل في عودتهم . . أنهم أقنعة كاذبة منافقة تجيد كل ما هو قبيح وسيء لك . . إنهم يستحقون التحية المبجلة . . أما بعد فتحياتي لكم يا أبناء العاهرات" . ويستمر الصراع ما بين شخصين في أن واحد وليلة واحدة . حتى مطلع الشمس ، فأسمع صوتا يهمس في أذني "عانق ما تبقي منك . . ونام" . ويستمر الصراع كل ليلة . ما بين الماضي والمستقبل . . في الأخير أخذت قرارا بالهدنة . . كنت اذهب مع غروب الشمس إلى الشاطئ وأبدأ من جديد في صراعي الخاص . . لحظة أعانق الحياة ولحظة يعانقني الموت . . بالمناسبة "المزاجيين لا يصلحون للحياة" .

وفي يوم وذات غروب كنت أدون مذكراتي علي شاطئ في خلوتي مع الطبيعة وأنا أفكر فيما يعتقده الناس من قواعد غير ثابتة .

يقولون أن الحب الأول هو الأصدق. هذا ما سمعته في الصغر. ولكن في معركة الحياة كلما ارتفعت هضاب الحزن وانبعث صوت الذل من الاشتياق، وتحول الانتظار لبكتيريا تفسد سحر منتصف الليل. بات النسيان فرضا لاستكمال الحياة.. أو ربما قطع ما قد فات من العمر في انتظار أشياء لا قيمة لها.. قرار واحد إذن من تعمد الغياب، وجب علينا نسيانه. فجأة جلست إحداهن بجواري دون مقدمات. كانت رائعة بدلالها. وكان قلبي معلقا بالماضي. كطفل يرقد علي قبر أمه أملا في عودتها. .وكعروس تقف في شرفتها تنتظر حفل عرسها. وقفت تنتظرني. وجودها لم يكن يعني لي الكثير. في قانون الانتظار قد تأتيك أجمل الأشياء دون أن انتظر. فقط لأنه ليس الشيء الذي تنتظر. اقتربت مني وسألتني..

ـ طال الانتظار هنا.. ألم تمل بعد..؟

رمقتها بنظرة سخرية.. إذن إنها ديرا كانت المرة الأولى التي أراها بعيدا عن المحادثات الالكترونية.

ـ الأشياء الجميلة دائما ما تأتي متأخرة.

ابتسمت وربتت علي كتفي، وهي تحاول الكشف علي شي

يستحق الحياة في مذكراتي اليائسة.

- والأشياء الجميلة لا ترحل لتتركنا وحدنا في العناء، ولكنها تستحق الانتظار، لكن ما أن تجد البؤس حولنا حتى تأتي علي هلع لتنقذنا من الغرق. الراحلون لا يعتيهم أبدا ما نمر به بعد الفراق. نحن وحدنا نتألم ونعاني ونراقب في صمت. هم في واد آخر. لا يهتمون ولا يبالون بما يحدث. كل شي في غرفتك هنا بائس. كل شي علي مشارف الموت أيعجبك هذا البؤس؟

وحدهم الذين يعرفون مرارة الانتظار، ويجيدون الحديث عنه. صمت للحظات هذا ما استنتجته من كلمات ديرا ثم قلت:

- لقد أعطيت لها كل شي. حاولت الحفاظ عليها. أحببتها بصدق. قدمت كل ما في وسعي للحفاظ عليها. كل شي لتبقي، ورحلت. أنا مستهلك، ولم يعد في قلبي شيء قادر علي الحياة..!

وضعت يداها علي فمي. فكت رباط شعرها وتركت للهواء الحرية في مداعبته. حين تمتزج الحرية بالمشاعر الطيبة يخلق جو آخر للحياة. اقتربت ديرا من أذني وهمست بهدوء..

- الأشياء الجميلة أيضا تسلب حرمة القلب رغما عنا. أنت مهووس

بالبحر . . تمعن عيناك جيدا . . !

غدوت في عالم آخر . البحر عظيم هادئ جدا، وبحياء يصطدم أمواجه بالحاجز الصخري. نسيم الهواء أنعش صدري المكبوت بالتبغ . غيوم السماء ترسم أشكالا جميلة تذكرت في طفولتي كنت أظن أن الذين نحبهم، ورحلوا عنا يأتون علي هيئة غيوم في الشتاء ليخبرونا كم اشتاقوا إلينا . لم انتبه لوجودها، لقد كانت الأجواء منعشة ومريحة حد إنني نسيت لماذا أتيت لهنا . أصبحت في حالة جيدة أو ربما أقل سوءا. البحر مسكن رائع للألم.

عانقتني من الخلف . فزعت من تصرفاتها الغريبة . نظرت إليها . شيء ما أسكت كلماتي العدوانية نحوها . لقد أزالت الوشاح عن كتفيها . مزيج مبدع بين الشعر البني الداكن وجسد يلمع كلؤلؤة خرجت من البحر . لم أتذكر إنني رأيت أجمل منها من قبل . أو إنني اعتدت القبح في انتظار الأشياء الفارغة . . !

تبسمت وعدت من شرودي إليها وقلت . .

- تبدين رائعة يا ديرا . . !

ابتسمت وقالت بحياء . .

ـ أنا آسفة

ـ عن إي شيء تعتذرين يا ديرا؟

ـ عن كل أوجاعك وأحزانك

ـ وما ذنبك أنت . . ؟

ـ وما ذنبك أنت أيضا لتتحمل وحدك كل هذا الحزن والوجع . ربما ذنبي إنني لم التق بك منذ زمن؛ لأكون أنا حبيبتك الأولى والوحيدة. ربما لأبعد قلبك عن عشق كل الراحلين عنك، وأخذ لك حلم الثورة منذ البداية، واختار لك موطنا يستحق الحب والقتال لأجله!

ابتعدت عنها وعدت للمنزل بعد أن استطاعت أن تقتحم جزءا كبيرا من قلبي. حاولت المقاومة عدة مرات، كان الحب يغريني ليلة ويرفضني ألف ليلة. لم تكن المشكلة تكمن في ديرا. كانت المشكلة في داخلي. عقدة النهايات الحزينة، هذا ما حصدته خلال تجاربي مع الحياة. إنني دائما صيد سهل للحزن والوجع. هذا أنا دائما اغرق

واغرق وأعلم ما ينتظرني في القاع، لكن رغما عني أواصل الغرق. رأيت النهاية الحزينة مع ديرا قبل أن نبدأ أول خطوات طريقنا معا. اخترت الوقوف علي الشط قبل أن أسقط مجددا في عمق المحيط. هناك لا أرض لك. لا مفر. إما الموت أو اللاموت. . أنصاف الحلول دائما لا ترضي لحظات القدر، لا تعترف بها الحياة. كان في ذهني تدور أشد وأقسى النهايات حزنا. رحيل لورين، ورحيل أمير، انتحار فاران الذي عشق فرويدة حتي النفس الأخير، وفرويدة التي عاشت مع ألد أعدائها علي فراش واحد. نهاية وردة الحزينة، وما حدث لسامر، ولحظات وداع ليندا الأخيرة. . إنها النهايات كل شيء كان يدور في ذهني كطفل يجلس علي الأرض تتأرجح بين الجحيم والنعيم، وهو لا يفقه شيئا. الحياة لم تكتف مني بعد ولنا في الموت ألف حياة، ولكن التعساء مثلي لا علاقة لهم بالموت، كذلك الحظ والسعادة.

إن مسببات الحياة لا تهوى من يدركون حقيقة الأشياء وأصلها. . هذا ما قالته السيدة تريزا في السابق. . ما أن تذكرت حديثها الأخير معي، حتي وجدتها تطرق باب منزلي. كان الوقت متأخرا كعادتها، ابتسمت ابتسامتها الصادقة، هذه المرة كان يظهر علي

ملامحها المجز . .

ـ كيف حالك يا عمر . . ؟

ـ كيف حالك يا سيدتي . منذ مدة طويلة لم نلتق . أفتقدتك كثيرا . . !

ـ وكيف حال الحنين معك . . ؟

سكت ، وأنا لا اعرف أي إجابة لسؤالها . فقالت

ـ فلنتحدث عن الفتاة الجديدة . . حدثني عنها . . ؟

ـ أي فتاة تقصدين . . ؟

ـ لا أعرف اسمها ، لكن هناك فتاة اقتحمت حياتك يا عمر

ابتسمت لذكائها الفائق ثم سألتها . .

ـ كيف علمتي . . ؟

ضحكت وأمالت رأسها للخلف كأنها تعيد الماضي ثم قالت . .

ـ الحب يشي بنا يا بني . . لا نستطيع كتمانه أو الاحتفاظ به . إنه يظهر علي ملامحنا ، يظهر في ضحكتنا وتصرفاتنا . إنه يعيد لنا صفاء ملامحنا ، ويجعلنا نتعامل مع الحياة ببساطة وتلقائية . في كثير من

الأحيان يعيد الحياة للرجال، لكن دائما يصبح الحب كالحياة في حياة المرأة. .هذا ما رأيت الآن في عينيك حينما سألتك عنه. .لمعت عيناك لمعة العشاق. .ابتسمت بروح صادقة ومرحة. .هنا وشى بك الحب يا عزيزي. .لكن أكثر ما يحزنني أن تنطفىء مجددا منه. .أن تعود لتكناتك الحزينة العتمة. .دعك من هذه الأمور. .هل تحبها. .؟

- ربما. .بالطبع. .نعم. .لا أعرف يا سيدتي لا أعرف

قالت وهي تتابعني بنظراتها. .

فلنتفق أن قلبك ركع في عشقها. ولماذا أحببتها؟

- لم أكن انوي الوقوع في الحب مجددا. .كنت أعلم أن الحياة لا تستحق مجازفة جديدة تحت اسم الحب. لكنها تشبهني، فأردت الأقتراب ليس أكثر من ذلك. .!

قالت في هدوء

- في أي شيء تشبهك. .؟

- في الحزن. .لقد تألمت مثلما تألمت أنا. .عانت وتحملت أثقال الحياة دون سند. لطالما عانيت أنا أيضا من الوحدة، ومن صفعات

الحياة. كانت تقسو عليها الحياة فتبتسم، وكانت تقسو علي الحياة فأبتسم. إننا بقايا لأحلام محطمة يا سيدي. رسائل غرامية مبعثرة علي طريق الجحيم، ومجموعة من سيمفونيات بيتهوفن لم تعزف من قبل. الاختلاف الوحيد بيننا أنها فاتنة يا سيدي. أقسم لك ملامحها في الحزن تجبرني أحياناعلي الصمت. أحب اللون الأحمر علي خديها حين تبكي، وأكره نظرات حزنها. أقف مكتوف الأيدي ما بين عشقي لجمال حزنها، وما بين كرهي لحزنها. بين ابتسامتها وضحكتها مزيج بسيط جدا يغمرني ببهجة دون تفسير لذلك. وحين أداعب أنفاسها، تجتاحني رغبة ملحة في الامتلاك. في البقاء بين ذراعيها للأبد. مزيج من رغبة شاب في العشرينيات وطفل رضيع. أريدها حد التملك، وأريد البقاء بداخلها للأبد. لم أقصد عشقها، لكنه حدث، وعشقت..!

- وماذا بعد..؟

- سأبتعد لا خيار لدي

أشعلت سيجارتها ثم قالت..

- هل تستطيع فعلها..؟

ـ سأحرم نفسي منها قبل أن يحرمني القدر منها . . !

ـ انه لشيء مؤسف أن يصاب الإنسان بعقدة النهايات . على اي حال الله معك يا بني إلى اللقاء . . !

عانقتني ثم خرجت . كان عناقها هذه المرة أكثر حرارة ودفء . كانت ليالي ديسمبر باردة طلبتني ديرا علي الهاتف فلم استجب واصل الهاتف بعدها صوته باتصال مصطفي .

ـ كيف الأمور معك يا عزيزي؟

كان صوته مفعم بالحيوية .

ـ دعك مني لا جديد . ماذا عنك . . ؟

ضحك بصوت عال ثم قال . .

ـ مصر مستنقع مرضى نفسيين . إن العيادات النفسية في هذه البلد تمتليء بمن هم دون الثلاثين من العمر . هذه كارثة حرفيا ، ستعاني منها مصر فيما بعد. قبل الثورة كان ساكنو هذه العيادات من أصحاب المشاكل الغرامية والعائلية ومع تعاقب الأحداث السياسية أصبح المرضي النفسيين من الثوريين وجود قوي هنا . في

مصر الأمور مختلفة بعض الشيء، فهنا تجد الإيمان والكفر والحرية والكبت والإصلاح والفساد في كيان أو مؤسسة واحدة. فمثلا القاهرة بلد الألف مئذنة، ومع ذلك تعتمد اعتماد كلي علي الملاهي الليالي في بعض شوارعها. كذلك هي منبر الإسلام باحتضانها للأزهر وهذا لا يشفع كونها من أكثر البلدان العربية في ظاهرة التحرش. ناهيك علي أنها من الأساس دولة قبطية، ومع ذلك قد تسمع عن حالات تهجير للأقباط في جنوب مصر. ومع كل ذلك الشعب المصري يؤمن انه شعب متدين بطبيعته. ألا يعتبر الأمر كوميديا يا عمر. إنهم يتخنون بما لا يفقهون، ويصدقون ما لا يسمعون، ثم يدافعون باستماتة عن عقائد غبية صنعوها ثم صدقوها. الكارثة أن لا فرق بين المرضي هنا، وغيرهم من الناس بالخارج. في الحقيقة هناك أضعاف أضعاف من المرضي في هذا المجتمع لكنهم لم يهتموا أو يكتشفوا بعد مرضهم..!

انتهت المكالمة بيني وبين أمير بسؤاله عن ديرا لكنني لم أعط أي إجابة واضحة. بعدها أعادت ديرا اتصالها، وطلبت مني أن نلتقي غدا في الصباح عند متجر العم ماركو. لم أمانع ووافقت علي طلبها. رحت في الصباح وطلبت القهوة، ثم تصفحت المجالات والأخبار

اليومية. خبر بالخط العريض "مقتل مديرة فروع سلسلة مطاعم مشهورة في باريس وزوجها يعترف بالجريمة"

أول ما خطر ببالي قصة نيفين مع يوسف وسامر. قرأت تفاصيل الخبر فعرفت أن يوسف وجدها برفقة أحد مسئولي الفرع علي فراشهم الزوجي فأخرج مسدسه وصوب نحوها خمس رصاصات متفرقة في أنحاء جسدها، ثم ترك الرجل ولم يمسه بسوء. وإنه اعترف، بل وبلغ الشرطة بالحادث. أنه القدر، انتظر الوقت المناسب ليظهر حقيقة نيفين القذرة، ويقدم لسامر باقة جديدة من الاعتذار.

جلست أفكر فيما كان يفكر يوسف وقتها. هل صعق لما شاهده من خيانة أم إنه قتلها ليمحو عار غبائه بعد أن صدقها، وكذب صديقه الصدوق. هذا كل ما كان يدور في بالي حتي جاءت ديرا. عانقتني لتغمرني بسحر عطرها. نظرت لي نظرتها الدافئة وقالت..

- في الصباح هناك شيئان فقط يستحقان النظر لهم. لحظات شروق الشمس.. وعيناك يا عمر..!

ابتسمت وكعادتها تعرف سر صمتي أمام كلمات الغزل..

فواصلت

- قد يكون ما مررت به صعب يا عمر..لكن أنا أيضا عانيت مثلك..لقد حاولت أن لا أقع في عشقك أن أبتعد بين الحين والآخر..كنت ابني السدود حولي لأحمي نفسي منك أنت، حتى لا تحاول دق أبوابه. احتفظت بك بين دفاتري بين أسراري. كنت أخبئك بعيدا عن نفسي، ويقتلني الحنين، فأعود لك واحتضنك..أنه شيء سخيف أن تقتحم قلبا لم تحاول الاقتراب منه من الأساس..هذا ليس ذنبك أنت بل ذنبي..لم يكن الخطأ خطأك، بل أنا الذي عشقتك سرا، وأردتك سرا، ثم ومع أول نظرة لعيناك أعلنت عليك العشق أمام الجميع. إن كنت تريد الرحيل فارحل. هذا حقك..هذا ما ينبغي أن يحدث من الأساس..لكن إياك أن تظن إنني لم أحبك أو أن ما احمله في قلبي لك مجرد مشاعر عابرة..أنا أحبك وهذا ما لا حول بي ولا قوة..!

قطعت حديثها..

ـ ديرا . . دعينا نصبح صادقين مع أنفسنا . . علاقتنا رائعة بكل ما تحمله من معني، قد يكون الحب في عمق العلاقة، لا في كلمات الحب والعشق والغزل . . أريدك بجواري سأكون أنانيا، لا أريدك في كل شيء معي . . !

ـ إذن لماذا ترفضني . . ؟

ـ أنا لا أرفضك يا ديرا . . أنا أرفض الحب أرفض حقيقة مشاعري نحوك . . أحبك . . لا لا . فالأمر أكثر من مجرد حب صدقيني . إن مشاعري نحوك تتعدي كل المشاعر التي يشعر بها العشاق . أنت صديقة رائعة، وعاشقة وفية . لو كنت اعلم إننا سنلتقي لاعتزلت كل النساء قبلك . . إنني لا أرغمك علي البقاء، لكن لا أريد أن تتحول علاقتنا لعلاقة عاطفية روتينية . . فلندع هذا المسمي جانبا، ونبقي معا إيا كانت نوع علاقتنا . أريدك هنا فقط لا أكثر من ذلك . . !

نظرت ديرا للسقف، وهي تفكر في جوابي . . أشعلت سيجارتي منتظرا جوابها، وأنا أعطي لها الحق فيما تظن من كلماتي . هذا أنا

وهذه حقيقتي أنا لا أريد الارتباط بشخص أخر حتي، وإن كان قلبي راكعا تماما لديرا، لكن عقلي أصبح يرفض الغوص في أعماق الحب من جديد.. ومع الأسف لم يخطئ عقلي مرة واحدة. عكس قلبي الذي لم ينصفني يوما، بل كل ما عشته من حزن وبؤس كان قلبي المسئول عنه.. شعرت بأنامل ديرا تلامس يداي. وضعت قبلة علي يدي برومانسية وبهدوء أعادتني بها إلى السماء إلى هذا العالم الدافئ الذي تمنيته في السابق.. هناك لا قسوة، لا حزن، لا وجع.. هناك استبدلوا العطور المصطنعة بالريحان والياسمين، ووضعوا الموسيقي لحنا مع أصوات الطبيعة.. هناك استبدلوا المنطق باللا منطق.. هناك لا يعرفون الوداع والفقدان. فقط البقاء والوفاء.. لا يشربون الكحوليات فلا شيء يدعي للهروب، فواقعهم وحده يستحق كل لحظة من الحياة.. هناك استبدلوا كل ما هو قبيح وسيء، بشيء جميل ومبدع.. استبدلوا الحدود الخرسانية ببساتين الورد، والسلاح بالقبلات.. هناك حب. لا حرب. هذا هو العالم المبتسم المشرق الذي تمنيت أن أعيش فيه للأبد.. ابتسمت لديرا ثم قبلت جبينها وهمست في أذنها..

ـ أنا معك يا ديرا

قبلتني على فهمي، وهي تروي أنفاسها بأنفاسي..

- سنبقي معا يا عمر

* * *

مرت أيام وأيام سمعت أخبارا عن جوزيف، وأنه يواصل التقدم والنجاح في مجالات مختلفة، وأنه يعتبر الرجل الأول في مدينة موناكو الصناعية.

للحياة اعتبارات مختلفة تماما. ليست عادلة ولا قوانين أو عرف يديره هذا الذي سرق حلم فاتن.. الآن امتلك نقود الأرض بما لا يستحق. أخيرا تزوج صديقي مصطفى واستقرت به الحياة في مصر شيء ينبت بالنور في قاع الظلمات نهاية منطقية في عصر اللا منطق. تزوج مصطفي من أحدى المرضي كان أمرا مرفوضا في البداية من قبل المجتمع الذي يعتبر المرضى النفسيين مجانين.. بالطبع سافرت لحضور حفل زفافه في مصر.. استقبلني مصطفي في المطار واتجهنا معا إلى منزله لإعداد التحضيرات الأخيرة قبل أن يسجن أو يحرر في بيته الجديد، وحياته الجديدة.. سألته عن عقوبات زواجه من أحدى المريضات فقال وهو يضحك..

- في البداية كانت تعاني من متلازمة "أوديونُفوبيا" . . هذا ما وصل بها لرفض أي علاقة اجتماعية . . أصبحت ترفض وجود الناس حولها واتجهت فيما بعد لشرب الكحوليات والنيكوتين . . كانت طفلة بملامح وتصرفات شابة ترفض حتى أن تتعري بحزنها أمامي . . وجدت صعوبة بالغة في التعامل معها حتى قدمت لها يوم ميلادها لوحة مرسومة لها وهي طفلة . أتذكر يومها تفاجئت بما قدمته . . وقفت مذهولة للحظات ثم تتأمل في الرسم بطفولة وعفوية . أشد القلوب قسوة تلين بكلمة صادقة وأشد النفوس انغلاقا مفتاحها الصدق . ابتسمت وشكرتني ببراءة يومها خرجت من الغرفة وأنا في غاية السعادة . . كانت هذه المرّة الأولى التي تتحدث معي طيلة شهر كامل . لم افلح في سماع صوتها . . يومها رحت للمنزل أتابع الوقت اللعين ليمر سريعا ؛ حتي نلتقي مجددا ، وبالفعل انتظرت حتى السابعة صباحا ، ثم انطلقت إلى غرفتها . . علي غير عاداتها تزينت بعشوائية هادئة . . وضعت خط الكحل علي عيناها مع أحمر شفاه بسيط ، وتركت شعرها الحلزوني يستنشق الهواء كانت تجلس أمام التلفاز تشاهد الأفلام الكرتونية . . أعطيت لها المارشيملو الذي أحضرته معي نظرت إلى

وهي ممتنة ثم قالت. .

ـ إياك أن تتجاوز علاقتنا هذا الحد . . كن واقعيا .

لا اعرف يا عمر ماذا حدث، لكني وجدت نفسي انطقها بلا اخجل . . انطقها ككلمة أخيرة قبل أن يعانقني الموت . .

ـ "دنيا" أنا احبك . . !

لم تنطق أي كلمة بعدها فقط أغلقت التلفاز وراحت في نوبة هسترية من البكاء، وهي نائمة علي وضع الجنين في رحم أمه. كانت تبكي بحرقة وحزن لم اعرف وقتها ماذا علي أن أفعل سوى معانقتها. وضعت رأسها علي صدري، وعانقتها بقوة. كانت تنهيدات بكائها تقتلني . . أي عالم وقح هذا الذي جعل منك مريضة نفسية يا سارة. . لازلت أتذكر كلماتها تلك. أصدق الكلمات التي قالتها وهي تجهش بالبكاء . . 'لقد حطموني، افسدوا حياتي خذلوني يا عزيزي. . لم أرد منهم شيئا، فقط أردت أن يحبوني كما أحبهم، يعاملوني بصدق كما أعاملهم، يتمنون لي الخير مثلما تمنيته لهم، أنهم يتقاتلون لأجل المال لأجل النفوذ والسلطة، لم أتصارع معهم، فقط وقفت أتابعهم أنهم يجيدون النفاق والكذب والخداع. يستفزونك لتخرج أسوء ما

فيك، أو تصبح فردا من قطيعهم إنني لا أريد الحياة. هنا كل شيء ملوث. . أنا أتنفس بصعوبة بالغة، يضيق حلقي من فرط الكذب من السلطوية والانتهازية. . أنهم يعاقبوني علي اسمي. أنا دنياهم التي يزحفون خلفها، يقدمون لها كل ما هو نفيس وغالي في سبيل امتلاكها، ثم يسحقونني. . لا تقترب أرجوك. أنا مريضة وأنت معالج ليس أكثر من ذلك. لن أساعدك حتي في عملك أنا أريد الحياة في هذه العيادة أريد هذا الاهتمام وهذه العناية. حتي المجتمع لن يسمح لك بالاقتراب مني أكثر من ذلك. . سيسخرون منك، ويؤلموني بكلماتهم. . أرجوك يا مصطفي دع الحب جانبا"

ظللت اربت علي كتفيها حتي نامت. ليلتها يا عمر ظللت أتساءل. .

"هل يحدث أن نقع في غرام أحد من اللحظة الأولى. هل كنت أشفق عليها أم انه حب صادق. لقد تعاملت مع غيرها من النساء ربما اشد صعوبة من حالتها النفسية. لكن هذه الفتاة تختلف. . أنا لم اسمع حتي صوتها لم تنظر إليّ لمرة واحدة. كانت هادئة في كل شيء. . كنت انتظر لحظات غفوتها في المساء حتي أتأمل ملامحها

الهادئة وهي في حالة سكون تام. كانت تبتسم وهي غارقة في نومها ويرتسم العبوس علي ملامحها ما أن تستيقظ. هذه الجميلة صاحبة الخمس وعشرون عاما ما رأته كان كفيل بأصابت قلبها بالشيخوخة المبكرة. دنيا ليست مريضة لكن من حولها مرضي. صدقني يا عمر لا أعرف إن كان حبا أم انه عطف" تطورت علاقتنا وتحسنت صحة "دنيا" ومع الوقت بدأت دنيا في استعادة عافيتها، وكان علي أن أكتب التقرير النهائي لحالتها. تحدثت مع "دنيا" في هذا الأمر، وأن حالتها تستدعي الخروج. رفضت دنيا الفكرة وأصرت علي كتابة تقرير يستدعي بقائها أكثر. كنت في حيرة تامة خصوصا مع اكتشاف سر علاقتي بهذه الحالة علي وجه الخصوص. الأمر كان أكثر تعقيدا، بعد أن علمت أن هناك بند يلزم إدارة المستشفي بفصل أي معالج يتم اكتشاف علاقته مع واحدة من مريضاته تحت أي ظرف. كان مستقبلي في خطر، فلقد أعتدت علي الحياة هنا في مصر. صحيح هذه البلدة لا تصلح لحياة آدمي، لكن شعبها ودود وطيب رغم كل شيء، علي الأقل في ضيافة المغتربين مثلي. كان القرار الأصعب في حياتي أنا أيضا حيث بشر يحمل صفات ملائكية وصفات شيطانية. فكرت في لحظة أن انسحب من الحالة أو اكتب تقريرا عن حالتها النفسية. وهنا

يلعب القدر لعبته المعتادة معي قبل جلسة التقرير الأخيرة. جلست مع دنيا في الغرفة. كانت نائمة كعادتها دون سبب لذلك. داعبت ملامح وجهها بأناملي، استيقظت وهي تبتسم أعطيت لها المارشيملو الذي تحبه. اعتدلت في جلستها ثم سألتني..

- في عينيك حديث تخبئه عني يا مصطفي

ابتسمت وأنا أتأملها..

- ماذا أفعل يا دنيا

قالت بصوتها الحزين الدافئ

- فكر في نفسك قليلا يا عزيزي

- سنحيا معا يا دنيا

وللمرة الأولى اقتربت من أذني وهمست

- الآن احبك يا مصطفي.

نطقتها أخيرا. لوهلة عاد الحنين لفلسطين، وعاد صوت أمي يضرب في أذني. أنها تحبني وتتشبث بي. .ربما أنا طوق النجاة لها

لكنها الحياة بالنسبة لي. عانقتها وقلت لها "لن أتركك بعد الآن يا دنيا". خرجت دون مقدمات واتجهت لمدير العيادة قدمت استقالة شفوية. كانت لحظة اعترافها بحبها لي، لحظة تغيرت الحياة بعدها. رفض مدير العيادة الاستقالة، فكتبت له استقالة ورقية بأسباب استقالتي، بعدم راحتي للحياة هنا في مصر، اضطررت لخداعه لأنجو من هذا الجحيم برفقة دنيا. لم تستمر المقابلة خمس عشر دقيقة، وبالفعل استجاب لطلبي بعد أن رفضت تقديم التقرير النهائي للحالة. فقط أعطيت له كل الأوراق التي تثبت استعادة الحالة النفسية لدنيا، وشفائها من متلازمة الخرف، وتركت له حق اختيار طبيب آخر في الجلسة الأخيرة. خرجت بعدها إلى منزل دنيا وعرضت علي والدها أمر الزواج بعد أن شرحت له ظروفي الاجتماعية، وإنني تقدمت باستقالتي في سبيل الحياة معها وأنا في انتظار خروجها لإعلان مراسم الزواج، وبعدها سنعيش في مدينة باريس؛ لاستكمل عملي هناك في العيادات النفسية. وافق والدها، واحترم صراحتي. طلبت منه أن لا يخبر دنيا بأي شيء عن كل ما حدث، وعليه أن ينتظر مكالمة من العيادة غدا. إما استكمال جلسات علاجها، وإما أن يأتي لتخرج معه من العيادة. خرجت من منزلها وطلبت بعدها مديري السابق في باريس

الذي وافق علي الفور بعودتي للعمل هناك. كنت العب بالنار أو تلعب النار بي. لا اعرف ماذا لو خرج تقرير المستشفي باستكمال علاج دنيا. ستصبح عودتي ومواصلة العمل علي حالتها أمر مستحيل. ستنتهي علاقتي بها إلى الأبد، وماذا لو أشارات التقارير بخروجها. هل يتذكرني القدر بالخير وتعود الحياة تبتسم بعد أن أعطتني كل دروس القسوة والفقدان والحرمان في الصغر.. لم انم ليلتها استمعت لآيات من القرآن. هزتني كلمات الله وهو يتحدث مع عباده.. "واصبر لحكم ربك فأنك بأعيننا" كانت رسالة الله واضحة وصريحة. تعبدت ليلتها حتي الشروق.. كنت أثق فيما سيختاره الله. السكون والطمأنينة التي سكنت قلبي كانت اقوي من تفكيري وبؤسي. سيبدلنا الله بخير منها، لن يتركنا وحدنا نعاني في هذا البؤس. مر الوقت أبطئ مما أظن. في قانون الانتظار تتحول عقارب الساعة إلى سلاحف شديدة البطء، معدومة الحركة.. لم تهتم الساعة بكثرة نظراتي لها. كنت اضرب بقدماي أرضا منتظرا اتصال والد دنيا.. لم أتحل بالصبر الكافي. انطلقت للمقهى المجاور للعيادة، وجلست انتظر القدر وما يخبئه لي.. دقيقة تلو الأخرى وأنا أتأرجح بين اختيارات القدر. العاشرة والنصف وأخيرا رن الهاتف..

ـ دكتور مصطفي. . أنا في الطريق للعيادة لقد أشارات التقارير بخروج دنيا من هناك؟

أغلقت الهاتف في وجهه، وقفزت في الهواء. اقسم لك كنت اشعر إنني أصل للسماء برأسي، وقفت منتظرها عند الباب. كانت حزينة، فلم يصلها أي خبر عني من ليلة الأمس، وقفت أمامها فجأة وأنا أحمل باقة من الورد صمتت مذهولة ثم هلعت نحوي وعانقتني أمام الجميع، وهي تبكي "كنت أظنك رحلت. . كنت أظنك رحلت يا مصطفي" أخذت بيديها وأنا أرقص بها في الهواء "لقد وعدتك ألا ارحل. سنبقي معا. سنبقي معا يا دنيا". وما قد حان الوقت وبعد شهر أعلنا زفافنا أعطاني القدر أجمل هداياه. هون علي مأساتي وحزني ليكافئني بها. من أي جنة أتيت أنت يا دنيا. . حمدا لحزن وبؤس أهداني بلك. . !

انتهي عمر من قصته مع دنيا، خرجنا إلى القاعة. كانت ليلة جميلة. . انه القدر لا احد يعرف كيف يقيم ويحكم فالوقت ما يأخذ منك كل شيء، وفي لحظة يعطيك كل شيء، هذا المزيج بين البؤس والفرح والحزن والسعادة. هكذا خلق الله الحياة بين الأبيض والأسود. فما دام حزن وما دام فرح، ويبقي للقدر حسابات أخرى!!

* * *

الواحد والثلاثون من ديسمبر. لازلت أتذكر هذا الصباح الكئيب. رفض ديسمبر أن يرحل قبل أن يترك أثره؛ ليختم عام الحزن والسعادة بمشهد لا ينسي. تزوج مصطفي من دنيا، وسمعت بإعلان جوزيف زوج فريدة إفلاسه بعد تورطه في قضية مشبوهة. أصبحت ديرا كيانا خاصا معي، نجحت في مجال العزف وأصبحت من مشاهير باريس، لكنها لم تتخلَّ عني. هذا أنا أيضا وصلت للذروة نجاحي الأدبي. لم اسمع أي خبر عن سامر، كذلك انقطعت الأخبار عن الملعونة لورين. استيقظت في صباح هذا اليوم الملعون. كانت ديرا نائمة بجواري. .كآبة الشمس أفسدت صباحي والطيور تنبح كالكلاب الضالة. أنه صباح كئيب لا خريفي أو شتوي. إنه كئيب لا أكثر.

استيقظت ديرا بعد أن شعرت بخلو مكاني علي سريرها. . قبلتها علي جبينها، عانقتني وذهبت لتعد لنا القهوة. . كنت اشعر أن احدهم أمسك قلبي بقبضته. كانت دقاته تمزق الشريان تلو الآخر. هذه

نوبات الأمراض المزمنة التي أصابتني بعد حالة اكتئابي. لا لا . .
الوضع أصعب مما أظن شيء ما سيحدث هذا الصباح: أشعلت سيجارتي مع فنجان القهوة. كنت اجلس علي كرسي المتحرك حتي إنني أعجز عن الحركة . . عادت ديرا للسرير لتطلي أظافرها . . أخذت تحدثني عن عدة أمور حدثت معها كنت متصنتا لها، وعقلي يسبح في عالم آخر. شعرت ديرا بتعبي فقالت أن لا ينبغي أن اخرج من المنزل في هذا الصباح . . رفضت الفكرة تماما وطلبت منها الاستعداد للخروج الآن، فمصطفي ودينا في انتظارنا في الساحة العمومية المقابلة لبرج أيفل في باريس . . وافقت بعد إصراري علي النزول كانت الساعة العاشرة صباحا . . ما أن وضعت قدماي علي الشارع حتى نظرت إلى المحل الصغير الذي تعمل بة السيدة تريزا . . وجدته مغلق بأحكام مع الكثيرة من الأتربة علية . . هذا يدل أن السيدة تريزا لم تفتح محلها منذ فترة . . بالصدفة تقابلت مع احد ساكني العمار القدامى . .

- سيدتي . . صباح الخير هل تسمح لي بسؤال . . ؟

- تفضل

- هل تعرف شيء السيدة تريزا . . ؟

استعجب من سؤالي ثم أعاد بسؤال آخر

ـ من تقصد . . ؟

أشرت نحو محلها وقلت . .

ـ السيدة تريزا صاحبة هذا العقار . . ؟

ـ كيف تعرفها . . ؟

شعرت بشيء ما غير منطقي . .

ـ ومن لم يعرف السيدة العجوزة . . ؟

قال وهو يستجوبني بسؤاله . .

ـ منذ متي وأنت تسكن معنا يا دكتور . . ؟

ـ منذ خمس أعوام.

صمت للحظات وهو ينظر لديرا والي نظرة اتهامنا بتعاطي المخدرات . .

ـ لقد رحلت السيدة تريزا عن الحياة منذ ثماني أعوام يا أستاذي . . ؟

رحل وتسمرت أنا في مكاني . . هذا هراء أن شيء غير منطقي يحدث . . كنت أراها وأتحدث معها . . أخبرت ديرا كثيرا عنها . نظرت إليّ ديرا فوجدتها مذهولة مما سمعت . قالت :

هيا يا عمر فقد يسرقنا الوقت هنا. خلال الطريق كنت صامتا، كذلك ديرا التي لم تجد أي كلمات تنطق. وصلنا إلى هناك في الموعد. كنت ارتدي معطفا أسود وشال يغطي رقبتي أما عن ديرا فكانت ترتدي فستان مزيج بين اللون الأبيض والأسود. كان الهواء باردا، وعلي قناعتي من اللحظة الأولي أن هذا الصباح كئيب. ربما ظهرت كآبته بعد أن علمت أن وجود السيدة تريزا كان في خيالي فقط وإنني علمت باسمها بعد أن سألت أحدهم عن صاحب هذا العقار فقط لكنه لم ينبهني أنها رحلت عن الحياة وأنا اتخذتها أهلا وأما وصديقة لي. انه الاحتياج الذي يخلق لنا شخصيات وهمية لنشعر بدفء واطمئنان هذا ما كنت أعاني منه فحين تغيب الرحمة في الواقع، تبقي رحمة الخيال فرض. كان وجودها كالقشة لغريق. كانت تغيب وتغيب لتظهر في الوقت المناسب، تروي الزهرة التي وضعتها في قلبي بوجودها.

أيقظني الهواء البارد من غفوتي في خيالي الوهمي. ظهر مصطفي بصحبة زوجته 'دنيا' لوح إليّ من بعيد فاتجهنا له. تعانقنا عناقا حارا، فقد كنت مشتاقا له. وقفنا لنلتقط صورة تذكارية معا

"أنا وصديقتي ديرا وصديقي مصطفي وزوجته دنيا" لأسباب لا أعلمها شعرت بثقل قدماي علي الأرض. فجأة ظهر احد المجاذيب يرتدي ملابس مقطعة، ويتحرك بطريقة جنونية وهو يغني بلغة غير مفهومة و غير منتظمة. إنه سامر كما توقعت أن ينتهي به الزمن، فقد عقله أو ربما عاد لوعيه ولحقيقته. مثل هؤلاء تبقي نهايتهم منطقية الذين اتخذوا الصدق طريقا لهم والذين رفضوا أن ينضموا للقطيع. انتظرنا حتي يمر لتمر معه الحقيقة الأولى "في هذا الواقع لا أحد ممن صادقوا أنفسهم يمكنه مصادقة الناس" ابتعد سامر قليلا، اعتدلنا في وقفتنا من جديد لنلتقط الصورة وإذا بأحداهن تمر أمامنا أيضا أنها فريدة تمشي كعادتها بفخر وعزة. نظرت لها وجدتها ترتدي المعطف الرمادي كأول مرة. ابتسمت لي وجلست علي الأرض علي بعد أمتار منا. الحقيقة الثانية "وحدهن النساء التي تتميز بالغرور يستطعن بجدارة إخفاء مشاعرهن الحزينة بابتسامة عابرة". استعدنا وقفتنا من جديد بعد أن مرَّ كل من فريدة وسامر أمامنا، ومن بين الحشود المشغولة بروعة وجمال برج ايفل وقفت احداهن تنظر لنا بصحبة رجل يبدو علية العجرفة والغرور. نظرت لها ونظرت إليَّ في حوار نظرات غير قابل للحديث. هي ليست لي وأنا لست لها، والصدفة لا تعترف

بقراراتنا الأبدية . . لاحظت ديرا وجودها قبضت على يدي وأناملي كانت ديرا تعرفها جيدا أنها لورين برفقة باولو يقفان أمامي. هو مشغول بروعة الأجواء وهي تنظر لنا. بعض الصور لا تلتقطها عدسات التصوير . فقط تتحول حقوق ملكيتها للقدر وحده .

ثوان معدودة بعد أن رأت ديرا تعانق أناملي فرحلت لورين مع زوجها كنت أتمزق وجعا من قسوة اللحظة فأسوء الكوابيس لم تأت بهذه اللقطة الحزينة الانتقامية . القاعدة الثالثة "الرجال لا ينسون عشقهم الأول مهما حدث حتي ، وإن كفوا عنه، يبق شيء مقدس في ذاكرتهم" . . التقطنا الصورة والتقط القدر اقسي واعنف المشاهد الكلاسيكية الحزينة . . حين يجتمع الظالم والمظلوم والقوي والضعيف ، المؤمن والكافر . . الذين بكوا لفراق أحبائهم والذين ابتسموا لأوجاعهم، الذين القوا بنا في عمق الحزن والذين أعادوا لنا الحياة من قلب الموت حين يجمعك القدر مع ماضيك وحاضرك ومستقبلك في لحظة واحدة . . أنها لحظة فريدة من نوعها ويا لقسوتها . . !

في الختام

"كنت ابحث بين صفحات الماضي علي شيء يبعث الأمل في نفوسكم. صحيح حاولت قدر المستطاع أن أجمع بين لحظات الحزن، ولحظات الفرح بين الهزيمة والانكسار، والنصر والمجد حاولت أن اكتب لكم عن المزيج الذي فرضه القدر علينا بين اللون الأبيض والأسود، ولكني كنت مخادعا، فكتبت لي وحدي اللون الذي طالما سيطر علي حياتي وحده. الرمادي سيد كل الألوان وما غيره إلا كذب ووهم. أمن به البعض، وكفر به الأخر. هذا أنا وهذه حقيقتي. أنا ولدت من بين أعماق حزني وبؤسي. هذا فقط ما أستطيع سرده لك فحتي لحظات سعادتي مرت سريعا قبل أن أضع لها خطا علي ورقتي. ربما لم نتفق أنا والسعادة والحظ والهدوء والحياة والحب علي قرار واحد، أو ربما اتفقنا أن لا نتفق أبدا. الي اللقاء في موعد آخر. ربما أقل قسوة مما أنا عليه الآن"

باريس لا تعرف الحب

محمد طارق

المحتويات

الصفحة



باريس

لا تعرف الحب

رواية

حاولت قدر المستطاع أن أجمع بين لحظات الحزن ولحظات الفرح بين الهزيمة والانكسار والنصر والمجد..
حاولت أيضاً أن أكتب لكم عن المزيج الذي فرضه القدر علينا بين اللون الأبيض والأسود و لكنّي كنت مُخادع فكتبت لي وحدي اللون الذي طالما سيطر على حياتي، وحده الرمادي سيد كل الألوان و ما غيره من الألوان كذب ووهم آمن به البعض و كفر به الآخر ..

محمد طارق



